

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عباس لغرور - خنشلة



- كلية الآداب واللغات
- قسم اللغة و الأدب العربي
- التخصص: الأدب العربي القديم

إرهاصات التحوّل المعرفي والقيميّ في شعر المتألهين

بحث مقدم لقسم اللغة والأدب العربي لاستكمال مواد شهادة ماستر 2

إشراف الأستاذ:
د. رشيد بلعيفة

من إعداد الطالب:
* سماعيل صوان

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
عبد الحميد ختّالة	أستاذ محاضر (ب)	جامعة عباس لغرور - خنشلة	رئيسا
رشيد بلعيفة	أستاذ محاضر (أ)	جامعة عباس لغرور - خنشلة	مشرفا ومقررا
خميسي أدامي	أستاذ محاضر (ب)	جامعة عباس لغرور - خنشلة	عضوا ممتحنا

السنة الجامعية: 2018/2019

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

- إلى كلّ من علّمني ولوّ حرفاً .
- إلى والديّ و كامل العائلة الكريمة .
- إلى زوجتي ؛ نعم السند ونعم الخليل .
- إلى كلّ العاملين في متوسطة منصر محمد - بجن - دون استثناء.
- إلى زملائي في فوج الأدب العربيّ القديم بجامعة عباس لغرور .
- إلى كلّ من يعرف الأستاذ صوان سماعل .

المعلمه

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت يا ربي من شيء بعد، بدأ الكلام وربّنا المحمود وله المكارم والعلا والجود ثم الصلاة على محمّد ما غرّد قمرئ وأورق عود، أمّا بعد:

يعتبر الشعر الجاهلي صورة حيّة وترجمة لحياة العرب قبل الإسلام، لما له من قيمة تاريخية جسّدت مختلف المعالم والممارسات العملية للعربيّ الجاهليّ، وذلك في إطار خالٍ من التعقيد، نابع من الفطرة السليمة. وقد تميّز المجتمع الجاهلي بجملة من السلوكات والمعتقدات الفاسدة والتي كانت تتنافى في مفهومها مع ما جاء به الإسلام بعد ذلك من مبادئ وقيم.

وفي ظلّ هذه الجاهلية الظلماء، القائمة على الشرك والعصية القبلية، والنّار والاعتداء، ظهرت أصوات تتادي بعكس ما كان يسير وفقه التيار الجاهليّ، حيث تمثّلت هذه الأصوات في شعراء متألهين، عرفوا بالنتزّه عمّا كان يعتقد الجاهليّ ويمارسه، ولطالما بحثوا عن حقيقة الخالق تعالى ومصير الكون، ونادوا بالقيم الجليلة والمعاملة الحسنة وحسن الخلق، وهو ما شكّل إرهاباً للبعثة النبوية التي تمّت المكارم وصحّحت المعارف والمفاهيم، وهذا ما لفت انتباهي وأثار حفيظتي للوقوف في هذا البحث على: "إرهاصات التحوّل المعرفيّ والقيميّ في شعر المتألهين".

ومن الدوافع التي جعلتني أخوض غمار هذا الموضوع؛ دوافع موضوعية، كون أنّ هذه الدراسة عبارة عن مذكرة تخرّج مكّمة لنيل شهادة الماستر 02 في الأدب العربي القديم، ودوافع ذاتيّة متمثّلة في محاولة كشف اللثام عن هذا الموضوع الذي كان نتاجاً للعديد من التساؤلات المتمحورة حول ظروف التهيئة الرّبانيّة لقدم الأنبياء والمرسلين، بالإضافة إلى نية إثراء الدراسات السابقة، بتقديم قراءة جديدة في الشعر الجاهليّ، من خلال ربط ما سعى إليه المتألهون بما جاء به الإسلام وأكّد عليه، ولعلّ هذا هو الدافع الأساسي لاختيار الموضوع، ممّا أضفى عليه طابعا من الجدّة والابتكار. ومن أبرز الدوافع الذاتيّة كذلك

المقدمة

ميولي لشعر الحكمة، وتأثري بشعر زهير بن أبي سلمى، باعتباره واحدا من المتألهين. وكل هذه الدوافع أوجبت عليّ طرح جملة من التساؤلات:

ما هي الإرهاصات؟ ومن هم المتألهون؟ وإلى أي مدى كان شعرهم إرهاصاً لتحوّل معرفي وقيمي؟ وما هي أبرز معالم البيئة الاجتماعية التي عاشوا فيها؟ وما الواقع الديني الذي أحاط بهؤلاء المتألهين؟ وماذا تمثّل لهم الحنيفيّة الإبراهيميّة؟ وما الذي استمدوه منها في التعبير عن مختلف الرؤى التي تبوّها؟ وبم تميّز شعر المتألهين عن غيره من أشعار الجاهليين؟ وأي الموضوعات طرقت عندهم؟ وإلى أي حدّ وصل تفاؤلهم بقدم مغير يغيّر أوضاع العرب ويقومها؟ وما هي أبرز القيم التي سعى إليها الشعراء المتألهون؟ وأين تقاطعت مبادئ الإسلام وقيم هؤلاء المتألهين؟ وكيف كانت نظرتهم لما كان يحيط بهم؟ وكيف نظروا للمستقبل ومختلف الغيبات؟ وما المعتقدات التي وظّفوها في أشعارهم؟ وهل وجدت صدى لها في الإسلام بعد البعثة؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، رسمتُ خطة مكوّنة من مدخل وفصلين، وهو ما اقتضته طبيعة هذه الدراسة، حيث تناولت في المدخل مصطلحات البحث وواقع الحياة العقلية للعرب قبل الإسلام، كما خصّصتُ الفصل الأول للحديث عن الشعراء المتألهين وأبرز الموضوعات التي ميّزت شعرهم؛ من إيمان بالله وذكر للبعث والحساب والملائكة، وكيف تناولوا قضية القضاء والقدر، مع مختلف القصص التي كانوا يوردونها في أشعارهم في قالب من الحكمة والوعظ، تحت إطار الموقف الأخلاقي المعرفي.

كما عالجتُ في هذا الفصل الأوّل الواقع الديني للعرب قبل الإسلام، وتجليات الفكر التوحيديّ في شبه الجزيرة العربية، مروراً بالوثنيّة والمجوسيّة كظاهرتين دينيتين منشرتين عند العرب في الجاهلية، بالإضافة إلى الوقوف على أبرز معالم الحياة الاجتماعية لدى الجاهليين قبل الإسلام؛ انطلاقاً من القبيلة والنّار، مروراً بالطبقية في المجتمع الجاهلي والصعلكة كظاهرة اجتماعية متعدّدة الأبعاد والمقاصد، وصولاً لظاهرة التحنّف والتي كانت مناقضة لما عهده العرب أباً عن جدّ في الجاهليّة.

المقدمة

وعمدت في الفصل الثاني لجملة من الشواهد الشعرية من شعر المتألهين، محاولاً استخراج الإرهاصات والاستشرافات التي كانت في ثناياها، مقارنة ذلك بما جاء به الدين الإسلامي بعد البعثة، فوفقت على تفاؤلهم بقدوم النبي ودعوتهم للإيمان بالله وتوحيده، مع ذكرهم للحساب وأخبار الأولين، وموقفهم من القضاء والقدر، ومختلف القيم التي لطالما سعوا إليها.

وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي القائم على آليات المقارنة التحليلية الوصفية، مع التركيز على المقارنة المعنوية بين شعر المتألهين وما جاء به القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وذلك بغية استخراج ملمح الإرهاص في هذه النصوص الشعرية معتمداً على جملة من المصادر والمراجع، في مقدمتها كتاب الله جلّ وعلا، ثم كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، والسيرة النبوية لعبد الملك بن هشام وكتاب الرحيق المختوم للمباركفوري، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي وتاريخ العرب قبل الإسلام لمحمد سهيل طقوش، وكتاب الشعراء الحنفاء لأحمد جمال العمري، وتاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي لشوقي ضيف، ورسالة أدب الحنيفة في العصر الجاهلي لحبيب الزهراني كرسالة سابقة طرقت باب طائفة من المتألهين، بالإضافة إلى جملة من الدواوين الشعرية؛ كديوان أمية بن أبي الصلت وزهير بن أبي سلمى وليد بن ربيعة وعبيد بن الأبرص... وغيرها من المصادر والمراجع التي أنارت لي الدرب وذللت لي المصاعب والتساؤلات.

وبحكم أنه في كلّ رحلة مشقّات، وفي كل درب عقبات، فقد واجهتني في رحلتي هذه جملة من الصعوبات لعلّ أبرزها؛ ندرة المصادر والمراجع التي درست الموضوع من هذه الزاوية، ومشقة السفر في البحث عن بعض النسخ الورقية للمدونة الشعرية و بعض المصادر التي أوّلت أهمية لهذه الطائفة من الشعراء، وبغض النظر عن الالتزامات الشخصية التي تحول أحياناً دون سيرورة عملية البحث العلمي... .

المقدمة

وفي الأخير، ولأنه من لم يشكر الناس لم يشكر الله تعالى، فإنني أتقدم بأسمى عبارات الشكر والتقدير للأستاذ المشرف؛ فضيلة الدكتور رشيد بلعيفة على قبوله الإشراف على هذا العمل، وعلى نصائحه القيّمة وإرشاداته النبيلة، وعلى صبره ورحابة صدره طيلة هذه الدراسة، فله من الله عتاً خيراً الجزاء وحسن الثواب. ودون أن أنسى جميع من قدم لي يد العون و بالخصوص الدكتور خميسي أدامي، كما أشكر جزيلا الدكتور عبد الحميد ختالة على قبوله مناقشة هذا العمل بغية إثرائه وتقويمه .

وآمل أن أكون قد وفّقت في هذه الدراسة، وأدّت من جهود السّالّفين من القدماء والمحدثين، وأن أكون قد أبّنت جوانب جديدة في شعر المتألّهين تضاف إلى جهود السابقين خدمة للعلم والمعرفة .

والله ولي التوفيق

ملخص:

مصطلحات البحث وواقع

الحياة العقلية للعرب قبل الإسلام

أولاً: مصطلحات البحث:

1- الإرهاصات.

2- المتألهون.

ثانياً: واقع الحياة العقلية للعرب قبل الإسلام.

أولاً: مصطلحات البحث:

1- الإرهاصات:

ورد في لسان العرب في مادة " رهص ": " أنَّ الإِرْهَاصَ هو الإِثْبَاتُ، واستعمله أبو حنيفة في المطر، فقال: وأمَّا الفِرْغُ المَقْدَمُ فَإِنَّ نَوْءَهُ مِنَ الأَنْوَاءِ المَشْهُودَةِ المَذْكُورَةِ المَحْمُودَةِ النَّافِعَةِ لِأَنَّهُ " إِرْهَاصٌ " لِلْوَسْمِيِّ. قال ابن سيدة وعندي أَنَّهُ يريد أَنَّهُ مَقْدَمَةٌ لَهُ وإِذَانٌ بِهِ"¹. وجاء في تاج العروس في مادة " رهص ": " أنَّ الإِرْهَاصَ هو الإِثْبَاتُ يُقالُ أرْهَصَ الشَّيْءَ، إِذَا أَثْبَتَهُ وَأَسَّسَهُ وَهُوَ مِجَازٌ وَمِنْهُ إِرْهَاصُ النَّبِوةِ. وَأَصَابَهُ رَاهِصٌ. وفي كتاب النَّبَاتِ لأبي حنيفة: ونوء الفِرْغِ المَقْدَمِ إِرْهَاصٌ لِلْوَسْمِيِّ، قال ابن سيدة: يريد أَنَّهُ مَقْدَمَةٌ لَهُ، وإِذَانٌ بِهِ"².

وعليه فالإِرْهَاصُ هو الإِذَانُ بحدوث الأمر والتأسيس له من خلال جملة العلامات والملاحظات التي تعتبر بمثابة المقدمة أو البداية لوقوعه.

2- المتألهون:

جاء في لسان العرب، في مادة " أله "³:

الإِلهَةُ والأُلُوهَةُ والأُلُوهِيَّةُ: العِبَادَةُ وَقَدْ قُرئَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَيَذَرِكْ وَالْأَهْتَكْ﴾ وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: " وَيَذَرِكْ وَالْأَهْتَكْ " بِكسْرِ الهمزة، أي وعبادتك، و" الله " أصله إلهٌ على فِعَالٍ بِمعنى مفعول لِأَنَّهُ مألوهٌ أي معبود، كقولنا إِمَامٌ فِعَالٌ بِمعنى مفعول لِأَنَّهُ مُؤْتَمٌّ بِهِ. وقيل إِنَّهُ مأخوذ -أي اسم البارئ سبحانه - من أَلِهَ يَأْلُهُ إِذَا تَحَيَّرَ لِأَنَّ العُقُولَ تَأْلُهُ فِي عَظَمَتِهِ، وقيل هو مأخوذ من أَلِهَ يَأْلُهُ إِلى كذا أي لَجَأً إِليه، لِأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ المَفْرَعُ الَّذِي يُلْجَأُ إِليه فِي كُلِّ أَمْرٍ.

¹ - ابن منظور، لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، د.ط، 2013، مادة: " رهص"، ج4، ص:272.

² - محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، 1977، ج13، ص:608.

³ - ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص: 198.

التَّأْلَهُ: التَّنَسُّكُ والتَّعَبُّدُ والتَّأْلِيهِ: التَّعْبِيدُ، قال الشاعر:

لله دُرُّ الغانيات المُـدَّه سَبَّحْنَ واستَرْجَعْنَ مِنْ تَأْهِي¹.

تَأْهِي أي تعبدي.

إذن فالمتأله هو المتعبد والمنتسك الذي يعبد الله تعالى، ويقرّ بوحديته، ويرتفع عن عبادة ما سواه، ويميل عن الشرك ومختلف العبادات الضالة، قائلاً بوجود إله هو "الله" جلّ في علاه.

¹ - وليم بن الورد البروسي، مجموع أشعار العرب، ديوان رؤية بن العجاج، دار ابن قتيبة، الكويت، د ط، د ت، ص:

ثانياً: واقع الحياة العقلية للعرب قبل الإسلام:

الحياة العقلية للعرب لم تتّصف بشيء مميّز في عالم الحضارة والعلوم فقد كانت هذه الحياة العقلية تتّسم بالبداءة والبدائية والسذاجة.

صحيح أن العرب في الجنوب كانت لهم حضارة متطورة في الصناعات والسدود ولكن هذه الحضارة طُمت معالمها بانهيار سدّ مأرب وتفرّق القبائل اليمينية في هجرات مختلفة نحو الشمال والشرق، ولم تنقل هذه القبائل المهاجرة ما عرفته من معارف وحضارة إلى مواطنها الجديدة التي استمرّت فيها بل رجعت إلى بداوتها¹.

" وطبيعيّ أنّ البداءة لم تكن تؤهلهم إلى علوم وصناعات كما هو الحال عند الأمم المتحضّرة، غير أنّهم كانوا يلمّون ببعض المعارف دعّتهم إليها حياتهم الصحراوية الجافة القائمة على النّقلة والترحال المستمر حسب فصول السنّة وحاجتهم إلى الماء والمرعى، ومن هذه المعارف؛ علمهم بالأنساب والأيام، وهو علم كانت تشترك فيه القبائل، فقد كان فيها رجال يلمّون بهذا العلم، وكان أبوبكر الصديق رضي الله عنه من أشهر رجال قريش الذين لهم باعٌ فيه، كذلك لهم علم بمواقع النّجوم ومطالعها وأنواعها، غير أنّ معرفتهم بذلك لم تكن تتجاوز ما ألفته عقولهم في معاينتهم للنجوم في سمائم الصّافية طول أشهر السنة"².

وهذا كلّه في ظلّ الظروف التي كانت تملي عليهم طريقة ونمط العيش كون أنّ الإنسان ابن بيئته.

وعرف العرب بعض وسائل العلاج مثل الكي بالنّار الذي يمارسونه في علاج بعض الجروح والأدواء، وفي الشعر الجاهلي إشارات تدل على ذلك، كما عرفوا بعض النباتات وكانوا يستخدمونها في علاج بعض الأمراض، وكان فيهم أطباء مشهورون مثل الحارث بن كلدة الثّقفي الذي تقول الروايات أنّه رحل إلى فارس وتمرّن هناك وعرف الدّاء والدّواء وكذلك النّضر بن الحارث الذي نشأ طبيباً كأبيه...، وبالإضافة إلى هذا كانت لهم معرفة بالبيطرة

¹ - ينظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي - ، دار المعارف، القاهرة، ط30، 2011، ص:81.

² - محمد عثمان علي، في أدب ما قبل الإسلام، دار الأوزاعي، بيروت، ط1، 1982، ص: 57، 58.

وعلاج الحيوان وبخاصة الإبل والخيول... وفي شعر دريد بن الصمة وطرفة بن العبد بن العبد، والتابغة الذبياني إشارات تؤكد ذلك¹.

وكان للعرب معرفة بالقيافة وهي تتبع الأثر، والزجر وهو معرفة باستخلاص النتائج من طيران الطير والتنبؤ في ضوءها، وكان هناك رجال من القبائل المختلفة يجيدون هذا الفن مثل بني أسد بن خزيمة الذين قال الجاحظ عنهم " ليس فيهم إلا قائف أو زاجر"². على أن أهم معارفهم التي خلفوها لنا هي حكمهم وأمثالهم التي تدل على عقولهم الصافية التي صفقتها التجارب، وعركتها الحياة، وقد ألفت في حكمهم وأمثالهم كتب عدة مثلاً كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ومجمع الأمثال للميداني³.

واختص عدد من الشعراء بالحكمة حيث كانوا يضمونها قصائدهم منهم زهير بن أبي سلمى وخاصة في مطولته وكذا طرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص ولبيد بن ربيعة العامري من باب التمثيل لا من باب الحصر.

وإن خير ما يدل على هذه الحياة هو شعرهم الذي يقف القارئ فيه على ومضات فكرية، تملأ النفس دهشة، كيف تأتي لشاعر في ذلك الزمن البعيد أن يقول مثل هذا القول الذي ينم عن فكر ثاقب وصورة ذهنية كاملة جعلت بعضهم يتخطى ويسفقه عبادة الأوثان، مُدركاً أن للكون إلهً مُدبّر هو أجل وأعظم من هذه الجمادات المعبودة، باحثاً عن هذه الحقيقة، والتي التمسها بعضهم في الحنيفية الإبراهيمية، أو في النصرانية واليهودية باعتبار منطلق التوحيد الذي جاءت به كتبهم.

وهذه الحكم الربانية جعلت النقاد يتعجبون منها، كما حدث مع أبي عثمان الجاحظ

حين قرأ أبيات زهير بن أبي سلمى:

وَجَارُ الْبَيْتِ وَالرَّجُلُ الْمُنَادِي أَمَامَ الْحَيِّ عَقْدُهُمَا سَوَاءٌ
جَوَّارٌ شَاهِدٌ عَدْلٌ عَلَيْكُمْ وَسَيِّانِ الْكَفَالَةِ وَالْتَّلَاءِ

¹ - ينظر محمد عثمان علي، في أدب ما قبل الإسلام، ص: 58.

² - المرجع نفسه، ص: 59 (نقلاً عن البيان والتبيين، تح فوزي عطوي، بيروت، ج1، ص:104)

³ - محمد عثمان علي، في أدب ما قبل الإسلام، ص: 59.

فَإِنَّ الْحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ يَمِينٌ أَوْ نِفَارٌ أَوْ جِلاءٌ¹.

فقال الجاحظ معلّقاً عليها؛ فتفهم هذه الأقسام الثلاثة كيف فصلّها هذا الأعرابي².

وإعجاب الجاحظ ودهشته إنّما نتجا عن وقوفه على منطق الفلاسفة فأحسّ كأنّما زهير قد وقف عليها وعلى منطقتهم، وقد غاب عنه أنّ مثل هذا قد يقع من شاعر متألّه سبق الإسلام، لأن عصرهم لم يكن غفلا عن الفكر والآراء الصائبة وحده البصيرة وعمق المخيلة. وكانت أكثر حكمهم تستقى من مروعتهم وسننهم، وهي تجري مجرى التعاليم التي ينبغي أن يأخذوا بها في حياتهم، وفي خاتمة معلقة زهير طائفة كبيرة منها³.
قال "زهير"⁴:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ
وَمَنْ لَا يُصَانَعُ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
وَمَنْ لَا يَزِدُّ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ
وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنِيَّةِ يَلْقَاهَا
وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ
وَأَكْنَتِي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي عَدِ عَم.
يُضْرَسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسِمٍ*.
يُهَدَّمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يَظْلَمُ.
وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلْمٍ.
وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ.

ويقول "طرفة" في مطولته⁵:

أَرَى الْمَوْتَ يَغْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي
أَرَى الْعَيْشَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ
لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى
عَقِيلَةً مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ
وَمَا تَنْقُصِ الْأَيَّامُ وَالِدَهُرُ يَنْفَدِ
لَكَالطَّوْلِ** الْمُرْخَى وَثَنِيَاهُ بِالْيَدِ

¹ - زهير بن أبي سلمى، الديوان، تح حجر عاصي، دار العزة والكرامة، وهران ، ط1، 2015، ص: 11، 12، 13.

² - محمد عثمان علي، في أدب ما قبل الإسلام، ص: 60 (نقلًا عن الحيوان، ج3، ص: 147).

³ - ينظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي-العصر الجاهلي-، ص: 87.

⁴ - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 114، 115.

* - المنسم: خف البعير.

⁵ - أبو عبد الله الحسين الرّوزني، شرح المعلقات السبع، بيت الحكمة، الجزائر، ط02، 2013، ص: 80.

** - الطّول: الحبل الذي يطول للدابة فترعى فيه.

فهذه المعالم التي ذكرناها تسقط حجة من يقول بأنّ عرب الجاهلية كانوا بدائيين، لم يدركوا ولم يعرفوا ولو خيطاً رفيعاً من حضارة من حولهم وهذا ما أقرّه الدكتور ناصر الدين الأسد حين قال: " فإنّ حياة العرب في الجاهلية - فيما بدا لنا - بعيدة كلّ البعد عمّا يتوهّمه بعض الواهمين أو يقع فيه بعض المتسرعين الذين لا يتوقفون ولا يتنبّتون، فيذهبون إلى أنّ عرب الجاهلية لم يكونوا سوى قوم بدائيين يحبّون حياة بدائية في معزل عن غيرهم من أمم الأرض...¹ .

يتضح ممّا سبق أنّ العرب كانت لهم ضروبهم الخاصّة من التفكير في حقائق يعيشونها في مجتمعاتهم، كما كان لهم حكم كثيرة مستوحاة من تجاربهم وما يحيط بهم، وكلّ ذلك ليس فلسفة أو ضرباً من التنطّع، ولكنّ ذلك وليد البساطة والفترة، التي قادت بعضهم للتألّه وتوحيد الخالق جلّ وعلا، وتجسيد هذا المعتقد في ومضات من أشعارهم ربّما كانت بمثابة الإرهاصات والإيحاءات، التي تنبئ بتغير جذريّ على جميع الأصعدة، في جوّ سادته مظاهر تتنافى مع القيم الأصيلة للعربيّ، وهذا ما سنحاول إثباته في الفصلين القادمين.

¹ - ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار الجيل، بيروت، ط7، 1988، ص:18.

الفصل الأول: الشعراء المتألهون وواقع العرب قبل الإسلام

أولاً: أبرز معالم الحياة الاجتماعية للعرب قبل الإسلام وظاهرة التحنف.

ثانياً: الواقع الديني للعرب قبل الإسلام وتجليات الفكر التوحدي.

ثالثاً: الشعراء المتألهون.

رابعاً: موضوعات ميّزت شعر المتألهين.

أولاً: أبرز معالم الحياة الاجتماعية للعرب قبل الإسلام وظاهرة التحنف:

تمهيد:

تميّز المجتمع العربيّ الجاهليّ في ظلّ وجود المتألهين بجملة من الخصائص، والتي ميّزته عن غيره من المجتمعات بغض النظر عن كونها محمودة أو مذمومة، فمن أبرزها:

1- القبيلة:

كان المجتمع العربي، باستثناء مجتمع اليمن، في مرحلة الجاهلية القريبة من ظهور الإسلام، مجتمعاً قبلياً بدائياً يتلاءم مع طبيعة البيئة، وقد قُسم العرب إلى وحدات اجتماعية متعدّدة عرفت كلّ منها باسم القبيلة وهي مستقلة لا تعترف بسلطة خارجية عليها، إنّها المجتمع الأكبر لأهل البادية.

وينتمي أفراد القبيلة إلى أصل واحد مشترك، وتربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة، وهو شعور التماسك والتضامن بين من تربطهم رابطة الدّم، وعلى هذا النحو تُعدّ العصبية مصدر القوة السياسية والعسكرية التي تربط أفراد القبيلة.

والعصبية عند العرب نوعان:

- عصبية الدّم، وهي أساس القرابة في البيت الواحد، ومصدر الترابط الوثيق بين أفراد القبيلة كما لو كانوا أسرة واحدة.
- عصبية الانتماء إلى أب بعيد أوجد مشترك انحدرت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه من نسله¹.

وكانت كل قبيلة تخضع لنظام مألوف لم يعرف الرئاسة المطلقة، وإنّما كان في كل قبيلة نفر من السادة، ومُفردهم سيد، يعترف لهم أفراد القبيلة بسلطان أدبي، ويوقرون آراءهم، وكان أعظم هؤلاء السادة عادة يعتبر سيد القوم، وواجباته كثيرة ولكنّها ليست محدّدة، فهو يمثل القبيلة، ويحمل الدّيات عمّن يعجز عن دفع الدّية من أفرادها، ويطعم الضيفان وما إلى

¹ - ينظر محمد سهيل طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس، بيروت، ط1، 2009، ص: 159.

ذلك، فإذا دخلت القبيلة في حرب أو خصومة أصبحت رئاسته مطلقة، حيث يقود القبيلة في الحرب، ويقوم بتمثيلها أمام الخصوم وينظّم القبيلة.

و كان لكل قبيلة نادٍ تجتمع فيه، تبحث أمورها وما يتصلّ بها من مصاعب أو حروب أو أحلاف...

قال "الأشعر الرقبان" يهجو رجلاً:

إذا ما انتدى القوم لم تأتهم كأتك وقد ولدتك الحمّر.

يريد إذا اجتمع القوم في ناديهم لم تأتهم لئلا تُسأل حاجة أو تكلف بأمر من الأمور¹.

ومرّت القبائل العربية البدوية بدور موعغل في البدائية والعزلة، هو دور الطوطم، وقوامه أن تتخذ القبيلة حيواناً أو نباتاً أو كوكباً أو نجماً أو شيئاً آخر من الكائنات المحسوسة جدّاً لها، أو أبياً تعتقد أنّها متسلسلة منه، وتنتسب إليه، وتسمى باسمه، مثل: كلب، كلاب، كليب، نمر، أسد، ثور، عجل، جحش، عنزة، قريش، زهرة وغير ذلك من أسماء حيوانات أو أشجار أو نباتات تختلف بحسب اختلاف البيئة التي يتواجد فيها عبدة الطوطم.

ويبدو أنّ العرب تسموا بهذه الأسماء التي وجدوها في بيئتهم نتيجة التأمل في الطبيعة بما تحويه من جماد ونبات وحيوان، على سبيل التمني والتفاؤل، أو بمحض الصدفة والعفوية كما يمكن أن تكون مثل هذه الأسماء قد أعطيت لأصحابها كأسماء وشهرة، فالقوي يمكن أن يسمّى بالنور، والشجاع يمكن أن يعرف بالأسد والماكر بالثعلب، وهكذا...

وسئل بعض العرب: "لم تسمّون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم لأحسنها نحو مروق ورياح! فقالوا: إنّما نسمّى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا"².

وتسمّت القبائل بأسماء الآلهة التي عرفوها وعبدوها مثل: عبد مناة، وعبد اللات، وعبد العزى وغيرها.

¹ - ينظر محمد عثمان علي، في أدب ما قبل الإسلام، ص: 45، 46.

² - ينظر محمد سهيل طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام؛ ص: 161، 162.

" وإذا نظرنا إلى المرأة في هذا المجتمع القبلي وجدنا أنها لم تكن بالذليلة المهانة كما يتصور بعض الكتاب من الذين يريدون أن يصدّموا ذلك المجتمع بكلّ نقيصة حتّى يفرقوا بينه وبين المجتمع في الإسلام.

ولسنا في حاجة إلى أن نبرهن على إعزاز الرّجل الجاهلي للمرأة، فالشعر الجاهلي يزخر بذلك، ويكفي أنّ القصيدة الجاهلية تبدأ بذكرها وإظهار الأسى والحزن لفراقها، والبكاء على أطلال ديارها بل أنّ الشاعر الجاهلي كان يُشهد المرأة على شجاعته وحسن خلقه"¹، قال "عنتر بن شداد":

أُنِّي عَلِيَّ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي سَمَحٌ مُخَالِقِي إِذَا لَمْ أُظَلِّمْ
وَإِذَا ظَلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بِأَسِلٍ مُرٌّ مَدَاقَتُهُ كَطَعِمِ الْعَقَمِ²

ولا يلزم من هذا أنّ المرأة لم تتعرّض للإهانة والحرمان في الجاهلية والوَأد خير دليل على ذلك.

" لكننا لا نريد تضخم الأمور، والمبالغة في طرح المشكلة بهدف النيل من العربي والخطّ من سمعته، واتهامه بصفات البربرية وسمات العبودية، التي كما بيّنا آنفا لم يتقبلها إطلاقاً لأنّها تتعرض مع وجوده الحياتي ومنطلقاته الأدبية، وتتناقض مع أعرافه الموروثة وتقاليده المتأصلة عبر مختلف الأزمان. لاسيما بعد أن كشفت الدراسات الحديثة عن خصوصية الوأد وأظهرت أنّ هذه الفعلة لم تكن عامّة، وتشمل مختلف القبائل، وأنّها انحصرت عند قلّة من أفراد القبائل الفقيرة، الذين غلبوا لغة الأمر الواقع على العواطف الإنسانية والذين تمّصوا من المداخلات المانعة والمحاولات الرّادعة. أكّدت الدراسات أنّ وسائل عدّة اتُّبعت للحيلولة دون وأد البنات، فيروى أن زيّداً بن عمرو بن نفيل القرشي كان يضرب بين مساكن القوم،

¹ - محمد عثمان علي، في أدب ما قبل الإسلام، ص:47.

² - ديوان عنتر بن شداد، شرح وتقديم محمّد أشرف عبد العزيز، دار مكتبة المعارف، بيروت، ط2، 2016، ص:12.

فإذا لاح له رجل يهم بوأد ابنته قال له: " لا تقتلها أكفيك مؤونتها"، ويأخذها ويتولى أمرها حتى إذا شبت يخير والدها في ردّها أو إبقائها عنده".¹

وكان للشعراء مكانة خاصّة في المجتمع العربي القبلي، وللشعر فضل وقيمة في النفس العربية حتّى قيل أنّه ديوانهم، في حلّهم ومرتلهم حيث يحدثنا ابن رشيق عن ذلك: " كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطمعة، واجتمع النّساء يلعبن بالمزاهر - كما يصنعون في الأعراس - ويتباشر الرجال والولدان، لأنّه حماية لأعراضهم وذبّ عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكورهم. وكانوا لا يهنئون إلاّ بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج:

فممنّ حمى قبيلة زياد الأعجم²، وذلك أنّ الفرزدق هم بهجاء عبد القيس فبلغ ذلك زياداً - وهو منهم - فبعث إليه: لا تعجل وأنا مهد إليك هدية، فانظر الفرزدق الهدية فجاءه من عنده:

فما ترك الهاجون لي إن هجوتُهُ	مصحاً أراه في أديم الفرزدقِ
ولا تركوا عظماً يرى تحت لحمه	لكاسره أبقوه للمتّعرقِ
سأكسر ما أبقوا له من عظامه	وأنكّت مَخَّ الساق منه فأنّقي
فإنّا وما تُهدي لنا إن هجوتنا	لكالبحر مهما يلق في البحر يغرقِ

فلما بلغته الأبيات كفّ عما أراد وقال لا سبيل إلى هجاء هؤلاء ما عاش هذا العبد فيهم"³. وفي ظلّ كلّ هذا شاعت في هذا المجتمع الجاهلي القبلي آفات قد حاربها القرآن فيما بعد وأنكرها أشدّ الإنكار.

لعل أهمها الخمر واستباحة النّساء والقمار، ونحن نجد الخمر تجري على كلّ لسان، وقد اشتهر بالحديث عنها وعن كؤوسها ودنانها وحوانيتها ومجالسها أعشى قيس وعدي بن زيد

¹ - منذر معاليقي، صفحات مطوية من تاريخ عرب الجاهلية، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1995، ص: 99، 100.

² - زياد بن سليمان الأعجم، مولى بني عبد القيس، من شعراء الدّولة الأموية.

³ - أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: عبد الحميد هندواوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001، ج1، ص: 53.

العبادي الحيري وعرض لها كثيرون في أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم وأكثر من يتجر بها اليهود النصارى وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته وقد تخلعه لما يتدنى فيه من رذائل، على نحو ما يروى عن البراض بن قيس الكناني أحد أدلاء القوافل في الجاهلية، إذ كان سكيراً فاسقاً فخلعه قومه وتبرأوا منه¹. ويقول "طرفة" في معلقته:

وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الْخُمُورَ وَلَذَّتِي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا
وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى
فَمِنْهُنَّ سَبْقِي الْعَادِلَاتِ بِشَرِيَّةٍ
وَكَرِّي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُجْتَبِئاً
وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالِدَجْنُ مُعْجَبٌ
وَبَيْنِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتَلَدِي
وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ
وَجَدَّكَ لَمْ أَحْفَلْ مَتَى قَامَ عُودِي
كُمَيْتِ مَتَى مَا تُغَلَّ بِالْمَاءِ تَزِيدِ
كَسِيدِ الْغَضَا نَبَّهْتَهُ الْمُتَوَرِّدِ
بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الْخِبَاءِ الْمُعَمَّدِ²

وواضح أنه يجعل من خلال الفتى هذه الخصال الثلاث، وهي الخمر والفروسية أو الشجاعة في الحرب والتمتع بالنساء، على أن هذه الفتوة التي يصورها طرفة كانت تتسامى عند كثير من فرسانهم مثل عنتره، بل حتى من صعاليكهم مثل عروة بن الورد. وأكبر دليل على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التي هاجمتها في القرآن الكريم، وما وضعه الإسلام من عقاب صارم حتى يكفُّ العرب عنها وقد شدد في عقوبة استباحة النساء وأكثر من النهي عن الخمر والميسر من مثل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا لَأَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾. [سورة البقرة / الآية 290].

¹ - ينظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي -، ص: 70.

² - طرفة بن العبد، الديوان، اعتنى به عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2003، ص: 33، 34.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [سورة المائدة/ الآية 91]، وهذا كله يشهد شهادة قاطعة بانتشار هذه الآفات بين عرب الجاهلية¹.

ولعل كثرتها وإيغال الناس فيها والمجاهرة بها يُعتبر إرهاباً لشيء قادم سيزيل الهمّ ويكشف الكرب ويمحو الضلالة وينير الأرض.

أما عن علاقة القبائل بعضها ببعض فقد كانت علاقة عداً وحرب أو حلف ونصرة ولذا كثرت الحروب والأيام بينها.

ولمّا كان الثأر سنة الحياة اتسعت دائرة الحروب بين القبائل المتناحرة ودام بعضها حوالي الأربعين عاماً كحرب البسوس بين بكر وتغلب.

وبما أنّ العلاقات بين القبائل علاقات عدائية؛ تغير الواحدة على الأخرى فتغتم مالها، إذن فالقانون السائد هو القوة، وهذا ما يدفع القبيلة الصغيرة والضعيفة إلى الاحتماء بالقبيلة القويّة لتزود عنها، وتحميها من الأعداء².

2- الثأر:

يعتبر موضوع الثأر من أبرز مظاهر الحياة البدوية وأعرافها الاجتماعية، ويحتل حيزاً كبيراً في حياة القبيلة، ويعود إليه معظم أيام العرب والوقائع الفردية، يحدث غالباً نتيجة حوادث فردية، لعلها تافهة، وغارات محدودة وضيقة، سرعان ما تكبر فتضمّ أبناء القبيلة كلّها، وتصبح القبيلتان في عداوة دائمة، سواء كانت وائرة تشنّ الغارات وتقيم الحروب أو موتورة تُهتِكُ أعراضها ويُعدى على حماها. لا تتوقف شطى حربها إلا بانتصاف الموتور من قوم القاتل، والأخذ بثأر القتيل، عملاً بمبدأ التماسك القبلي وبنظام عصبية البدوية، التي فرضت على قوم القتيل طلب القود، كما فرضت على عشيرة القاتل حمايته والدفاع عنه.

¹ - ينظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي - ، ص: 71، 72 .

² - فوّاز الشعار، الأدب العربي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1999، ص: 22، 23.

وقد يلجأ الثائر الموتور - فرداً أو جماعة - قبل أن يدرك وتره إلى طقوس بدويّة، كجزّ الشعر وتقصير الثوب والامتناع عن التنظيف والاختسال وأكل اللحم وشرب الخمر والاختلاط بالنساء، حتى يوفي رغباته وتحقيق حاجته ويأخذ بثأره¹...

أوجبت الحياة العربية في العصر الجاهلي أن يتساوى القاتل والمقتول في المنزلة والشرف، وتشدّدت أحياناً في الاقتصاص من غريمها. فطالبت أن يكون الثأر ممّن هو أعظم شأنًا وأقوى شكيمة، كما في حرب داحس والغبراء، لأن دم السيد لا يكافئه إلا دم سيد، ودم الحر لا يعادله إلا دم حرّ، وادّعت أنّ فكرة النفس لا تروى الظّمأ، أو لا تشفي غليل المفجوع، فرغبت باستئصال حلفاء القاتل وإبادتهم، ورفضت قبول الدية، وعدّتها في هذه الحالة ذلاًّ وعاراً، فامرؤ القيس رفض قبول دية أبيه وقال: " لقد علمت العرب أنّه لا كفاء لحجر في دم، وإنّي لن أعتاض به جملاً أو ناقة، فاكْتَسَبُ به سبّة الأبد وفت العضد " وأضاف " إنّ مقتل ألف من بني أسد لا يرضيه ولا يرضيه ولا يبوء بدم أبيه"².

وبعدّ الثأر نتيجة طبيعية للعصبية وامتداداً لها ومكّمل مهمتها الهادفة إلى المحافظة على كيان القبيلة عن طريق محاربة المعتدين عليها والردّ على ما تتعرّض له من اعتداءات وقد أضحت إحدى واجبات رئيس القبيلة، كما يظهر من قول عامر بن الطفيل سيد بن عامر، الذي لا يستطيع أن يستريح قبل أن يثأر على الرّغم ممّا يسببه له ذلك من حرج وألم في بعض الأحيان³.

تَقُولُ ابْنَةُ الْعَمْرِيِّ: مَالِكُ بَعْدَمَا	أَرَاكَ صَاحِبًا كَالسَّلِيمِ الْمُعَذَّبِ
فَقُلْتُ لَهَا هَمِّي الَّذِي تَعْلَمِينِهِ	مِنَ الثَّأْرِ فِي حَيِّ زَبِيدٍ وَأَرْحَبِ
إِنْ أَغْزَى زَبِيدًا أَغْزَى قَوْمًا أَعَزَّةَ	مَرْكَبِهِمْ فِي الْحَيِّ خَيْرِ مَرْكَبِ
وَإِنْ أَغْزَى حَيِّ خَتْمِ فِدْمَاؤِهِمْ	شِقَاءَ وَخَيْرِ الثَّأْرِ لِلْمَتَأَدِبِ ⁴ .

¹ - ينظر منذر معاليقي، صفحات مطوية من عرب الجاهلية، ص: 57، 58.

² - نفسه، ص: 59.

³ - ينظر محمد سهيل طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص163.

⁴ - عامر بن الطفيل، الديوان، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، دار صادر، بيروت، ط1، 1979، ص: 26، 27.

ثم يفخر بتأديته لواجبه في طلب الثأر:

سلاح امرئ قد يعلم الناس أنه طلب لثارات الرجال مُطَّلب¹.

ويتحدّث بعد ذلك عن اختيار قبيلته له سيِّداً عليها ويبين مغزى الثأر بالنسبة لها:

ولكنّي أحمي حماها وأتقى إذاها وأرمي من رماها بمنكب².

إذن فالثأر عقلية متجذرة في المجتمعات العربية الجاهلية القبلية وقيمة متوارثة بينهم،

كان من الصّعب ردّهم عنها وتهيّجهم عن تجسيدها عقب الوقائع والغارات، وهذا يتنافى تماماً

مع عقلية المتألهين والمبادئ التي استقوها من لدن الحنيفية.

3- الطبقة:

انقسم المجتمع العربي في الجاهلية إلى ثلاث طبقات نتيجة الوضع الاقتصادي والمكانة

الاجتماعية، وهي:

الطبقة العليا: يدخل فيها أبناء القبيلة الأحرار الذين يرتبطون فيما بينهم برابطة الدّم والنسب

والجدّ المشترك وهم عمادها وقوامها، وكانوا يهبّون لتلبية نداء القبيلة والتضامن معها ظالمة

أو مظلومة، وفي المقابل تعمد القبيلة إلى حمايتهم وتمنحهم حقّ التصرف في واحد من أهم

مظاهر الشرف والرّفعة في هذا المجتمع وهو الإجارة، فكان المجير يدخل في حماية من

أجاره من أفراد القبيلة فيدافع عنه ويقاوم من يتعرّض له بالأذى، ويلزم بذلك قبيلته، ما

عرّض القبائل لكثير من المشكلات³.

وتشكّلت الأرسقراطية العربية من رؤساء القبائل وأعيانها وأقاربهم، فمنهم التجار

وأصحاب الإقطاعات الكبيرة في الحواضر والمناطق الزراعية والرعية، وتتركّز الثروات في

أيديهم وتمايزوا عن فقراء القبيلة ومعدميها في مظاهر عدّة أبرزها:

¹ - عامر بن الطّفيّل، الديوان، ص:28.

² - نفسه، ص:28.

³ - ينظر محمد سهيل طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص:169.

- تملكهم أعداداً كثيرة من أصناف الماشية لاسيما الإبل، فضلاً عن مساحات واسعة من مناطق الرعي، وقد أثر التغلغل المادي في نفوس أصحاب هذه الطبقة، وظهرت آثاره في الديات، ففي حين كانت دية الحرّ الشريف تصل إلى الألف من الإبل، كانت دية غيره من الأفراد الفقراء أو المعدمين لا تكاد تصل إلى النصف من هذه القيمة.

- تميّز الأعيان بنصب خيامهم في الروابي المشرفة على سائر أبناء لقبيلة وبأفضلية هذه الخيام.

- اقتنى أصحاب الطبقة الأرستقراطية السجّاد النّفس والأواني المعدنية والزجاجية المرتفعة الثمن، وأجود أنواع الأسلحة وأجل أسرجة الخيل والإبل¹.

- إنّ ارتفاع المستوى المادي لهذه الفئة مكّنها من أنّ تحيا حياة رفاة وترف، فلبسوا الثياب الناعمة والملونة المصنوعة من الكتّان والقطن والحريز، المستوردة من اليمن وبلاد الشام وانتعلوا النعال الرّفاق.

تصف "الخنساء" ثياب وجهاء قومها قائلة:

ونلبس في الحرب نسج الحديد ونسحب في السلم خزاً وقزاً²

وهذا التمايز جعل أفراد القبيلة الواحدة الأحرار ينقسمون إلى أغنياء وفقراء، إضافة إلى الانقسام الذي كان قائماً بين الأحرار والعبيد.

الطبقة الوسطى:

"يشكل الموالي عماد هذه الطبقة، وينقسمون إلى ثلاث فئات اجتماعية وهي:

¹ - محمد سهيل طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص: 170.

² - الخنساء، الديوان، دراسة وتحقيق إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة، ط1، 1985، ص: 199.

1-**الخلعاء:** الذين خلعتهم قبائلهم وتبرأت منهم لجرائم ارتكبوها، فلجأوا إلى قبائل أخرى طالبين الحماية أو انتسبوا إليها على أساس الموالاتة بالجوار، وكانوا يسمون أحياناً الحلفاء.

2-**الصعاليك:** وهم فئة من الفقراء أفرزهم توزيع الثروة والتمايز الاجتماعي، فانسلخوا عن قبائلهم تعبيراً عن تمللهم من الفقر والجوع والحرمان والشقاء والازدراء الذي كانوا يعانونه، واحترفوا اللصوصية ليغنموا عنوة ما حرموه¹.

وسنولي هذه الظاهرة أهمية في عنصر لاحق، كونها حلقة مهمة في الظواهر الاجتماعية والواقع القبلي العربي قبل ظهور الإسلام.

3-**العتقاء:** هم العبيد الذين أعتقهم ساداتهم من غير العبودية، وظلوا مرتبطين بهم برابطة الولاء، والمعترك كان عبداً وأضحى حرّاً، فارتقى من الطبقة الدنيا إلى الطبقة المتوسطة ولكنه لا يرتقي إلى الطبقة العليا، لعدم توفر صلة النسب العربي الحرّ فيه، لذلك يظلّ غالباً مرتبطاً بالمتعق، وينتسب إليه فهو عتيقه مثل زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، في حين أن المتعق الذي ينتسب إلى القبيلة التي منحته حريته يقال له مولى.

ويتمتع الموالي، سواء كانوا حلفاء أو عتقاء، بالحقوق نفسها التي يتمتع بها أفراد القبيلة التي يوالونها، وعليهم الواجبات نفسها.

الطبقة الدنيا:

تشكل هذه الطبقة شريحة كبيرة في المجتمع القبلي في العصر الجاهلي، وتضم العبيد السود والرقيق الأبيض والأسود.

أما العبيد السود فكانوا يجلبون من سواحل أفريقيا الشرقية بعامة والحبشة بخاصة، وشكّلوا إحدى السلع التجارية الرائجة...

فقد جلب تجار مكة أعداداً كبيرة من العبيد لاستغلالهم في أعمال الزيّ الاصطناعي، والزراعة، والحرفة ورعي الماشية، وحراسة القوافل التجارية، وتشغيلهم في الخدمة المنزلية،

¹ - محمد سهيل، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص: 171.

وهي إمّا أعمال صعبة ومرهقة تتطلب جهداً مضنياً، أو أعمال مهنية يأنف العرب القيام بها ولعلّ ما يدل على كثرتهم المفرطة أنّ هنداً بنت عبد المطلب أعتقت في يوم واحد أربعين عبداً من عبيدها، كما أعتق أبو أحيحة سعيد بن العاص مائة عبداً اشتراهم فأعتقهم، وكان بنو مخزوم من قريش يملكون عدداً كبيراً من العبيد السود يستخدمونهم في أعمال مختلفة وفي الحروب¹.

فقد كانت تجارة العبيد سوقاً نشطة، ويمارسها الرجال والنساء على حدّ سواء وهو مظهر يوحي بقدم منقذ للنفس البشرية من الإهانة والدّل لما شاع واستفحل تحت لواء الأرسقراطية العربية آنذاك.

4- الصعلكة:

" الصعاليك طوائف اجتماعية من بيئات تتفاوت في درجة تحضرها وتطور قواها المنتجة، ولكنها تتشابه من حيث الخل والفساد الذي طبع حياتهم الاجتماعية ويمكن تصنيفهم في ثلاث:

أ- **الخلعاء:** هم الذين خلعتهم قبائلهم وتكرت لهم وطردتهم من حماها وقطعت صلاتها بهم فلم تعد مسؤولة عن جرائمهم، من الصعاليك الخلعاء: قيس بن الحدادية، وحاجز الأزدي، وأبي الطمحان القيني.

ب- **الأغربة:** هم السود الذين ورثوا سواد البشرة من أمهاتهم الإماماء، فلم يعترف بهم أبائهم العرب ولم ينسبواهم إليهم لأنّ دماءهم ليست عربية خالصة مثل: الشنفرى وتابّط شراً والسليك بن السلّكة.

ج- **الفقراء:** هم الذين تصعلكوا نتيجة الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تسود المجتمع الجاهلي، وأبرزهم عروة بن الورد ومن التف حوله من فقراء العرب، والمجموعة الكبيرة من صعاليك هذيل²، فقد كان بعض الصعاليك من أبناء القبيلة نفسها، وكان بعضهم

¹ - ينظر محمد سهيل، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص: 172.

² - نفسه، ص: 171.

الآخر من جنس غير جنسها، وقد ساعد النظام الاجتماعي في القبيلة، والعلاقات بين القبائل على إحساس بعض هؤلاء الشعراء الفرسان بالظلم ومن ثم خروجهم على هذه القبائل واتخاذهم السطو والنهب وسيلة للعيش، وقد أرجع الدكتور عبد الحليم حنفي الصلعة في العصر الجاهلي إلى أسباب كثيرة منها عدم وجود دول جامعة، وعدم وجود زعامات متزنة وعدم التوازن بين الغني والفقير، ثم طبيعة الأرض الصحراوية وقسوة الحياة، وكذا الفراغ الذي يعشى كثيراً من الجاهليين في ذلك المجتمع. فنخلص إلى أن الفقر وإحساس الشاعر بالظلم كانا أهم الأسباب وراء انطلاق الشاعر إلى الصلعة، وخروجه على مجتمعه.

ويبدأ الصعلوك برفض التشكيل الاجتماعي لمجتمعه، والثورة عليه، والبحث عن تشكيل جديد يتفق ورؤيته¹.

يقول "الشنفرى"²:

أقيموا بني أمي ، صدور مطيكم فإني، إلى قوم سواكم لأميلُ
فقد حمت الحاجات والليل مقمزٌ وشُدت لطيّات مطايا وأرحلُ
وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القلى مُتغزلُ

فالشاعر يهرب بنفسه إلى عالم غير الذي كان يحياه مع جماعته ولكن هذا العالم ليس تشكياً من البشر، إنه مجتمع من الوحوش الضواري.

يقول الشنفرى³:

ولي دونكم أهلون سيّد عمّاس وأرقط زهلول وعرفاء جبالُ

فالأهل هنا هم الذئب والنمر والضبع وهي حيوانات تمثل رموزاً للتشرد والافتراس، فالذئب رمز للتشرد والنمر رمز الافتراس، والضبع يرتبط بالحياة على جنث القتلى.

¹ - ينظر حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2001، ص:181.

² - ³ - الشنفرى، الديوان، تحقيق إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، ط2، 1996، ص:58، 59.

هؤلاء الأهل الذين اختارهم الشنفرى هم المعادل الموضوعي للشنفرى في تشرده وميله للانتقام وقد جاء انطلاق الشنفرى إلى التصعلك نتيجة إحساس بالظلم، ورفض هذا الظلم¹.
يقول الشنفرى²:

ولولا اجتناب الذّام لم يُنفَ مشربٌ يُعاش به إلّاديّ ومأكُلٌ
ولكنّ نفساً حرّةً لا تقيّمُ بي على الضيّم إلّا ريثما أتحوّلُ

فهو يرفض الضيم والذلّ ولا يقبل أن يعيش في مجتمع يشعر فيه بالذلّ والهوان. ويتميّز الصعاليك إلى جانب ذلك بصفات كثيرة فزاهم يتحمّلون الجوع من أجل أن يأكل الآخرون، وهذا يمثّل واحداً من مفاخرهم.
يقول "عروة بن الورد"³:

إني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحدٌ
اتهزأ مني أن سمنت وأن ترى بوجهي شحوبَ الحقّ، والحقّ جاهدٌ
أقسّمُ جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء باردٌ

" ويكثر الحديث عن الجوع في أخبار الصّعاليك وشعرهم، ففي أخبار عروة أنّ أناسا من بني عيس أجدبوا في سنة أصابتهم، فأهلكت أموالهم وأصابهم جوع شديد وبؤس، فأتوا عروة يستجدون به فخرج ليغزو بهم ويصيب معاشا، وتنتشر في شعره وأخباره مناقشات بينه وبين صعاليكه حول الجوع الذي كان يجهدهم في غزواتهم"⁴

والمتملّ في أخبار الصّعاليك وأشعارهم يلفت نظره شعور حادّ بالفقر، وإحساس مرير بوقعه على نفوسهم، وشكوى صارخة من هوان منزلتهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم،

1 - حسنى عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص:182.

2 - الشنفرى، الديوان، ص:63.

3 - عروة بن الورد والسّمؤال، الديوانان ، دار صادر، بيروت، دطه، ص:29.

4 - يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، ط3، دت، ص:30.

وعجزهم عن الأخذ بنصيبتهم من الحياة كما يأخذ سائر أفراد مجتمعهم، أو الوقوف معهم على قدم المساواة في معترك الحياة، لا لأنهم هم أنفسهم عاجزون، وإنما لأن مجتمعهم ظلمهم، وحرّمهم من تلك العدالة الاجتماعية، التي يطمح إليها كل فرد في مجتمعه، وجرّدهم من كلّ الوسائل المشروعة التي يواجهون بها الحياة كما يواجهها غيرهم ممن توافرت لهم هذه الوسائل¹.

ثم هم برغم فقرهم وما يلاقونه من مجتمعهم كرماء حتى ليُضربُ بهم المثل في الكرم، ويقرن عروة بحاتم الطائي الذي يعدُّ في نظر العرب المثل الأعلى للجود والسخاء؛ وقد قال عبد الملك بن مروان من زعم أنّ حاتمًا أسّح النَّاسَ فقد ظلم عروة بن الورد... ووصفه الأصمعي بأنّه شاعر كريم².

و إلى جانب هذه القوة النفسية التي كان هؤلاء الصعاليك يمتازون بها كانوا يتمتعون بحظّ وافر من الشجاعة والجرأة وقوة الجسد. وتفيض أخبارهم وأشعارهم بأحاديث هذه القوّة.

ويصرّح "الشنفرى" - في اعتداده بنفسه بأنه يقدم في شجاعة وجرأة حيث يقف الجبان هلعًا جزوعاً³:-

وآب إذا أجرى الجبان وظنّه فلي حيث يخشى أن يجاوز محشف⁴.

هكذا رسم هؤلاء الصعاليك الأقوياء حياتهم جسداً ونفساً من أجل فرض أنفسهم على مجتمعهم، ومن أجل رفع الظلم والغبن عن فئات محرومة في المجتمع، والقضاء على الطبقة الظالمة، وقد عدّت هذه الحركة من خلال مقاصدها الجليّة إرهاباً للبعثة النبوية، من قبل بعض النقاد، أمثال يوسف اليوسف في مقالاته؛ كونهما يتقاطعان في العدالة ورفع الظلم عن المظلومين وإغاثة الملهوف.

¹ - ينظر يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص: 32

² - نفسه، ص: 37.

³ - نفسه، ص: 40.

⁴ - الشنفرى، الديوان، ص: 55.

5- ظاهرة الحنفاء:

في ظل كل هذه الاضطرابات التي شهدتها شبه الجزيرة العربية على جميع الأصعدة؛ تتضح جلياً حركة واكبت كل هذه التغيرات على مستوى الوعي العقدي لتصبّ في المجرى العام لتاريخ الجاهليين.

حيث يقول جواد علي: "وقد أشار القرآن الكريم إلى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام، ولم تكن من اليهود ولا النصارى، وإنما اعتقدت بوجود إله واحد عبدته، وقد ذكر المفسرون وأهل الأخبار أسماء جماعة من هؤلاء، غير أنّ ما ذكره عنهم غامض لا يشرح عقائدهم، ولا يوضح رأيهم في الدين، فلم يذكرنا عقيدتهم في التوحيد ولا كيفية تصوّرهم لخالق الكون. وقد عرف هؤلاء بالحنفاء وبالأحناف ونعنوا بأنهم كانوا على دين إبراهيم عليه السلام...سّفهوا عبادة الأصنام وسّفهوا رأي القائلين بها"¹.

مصدقا لقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة البقرة/ الآية 125].

" والواقع أنّ الحنيفية في خطوطها العامة لا تدعو إلى اختراق الأطر القبلية التعددية فحسب وإنما هي تدعو أيضا إلى اجتثاث جذورها الوثنية، من واقع كونها وعيا تعددياً تقسيميا من خلال إلغاء عبادة الأصنام والدعوة إلى التوحيد الإلهي.

والمعروف أنّ الحنيفية لم تستهدف إقامة دين جديد وإنما كانت مجرد حركة دينية وصف أتباعها، الذين سمت أنفسهم عن عبادة الأوثان، بالحنفاء أتباع إبراهيم عليه السلام"².
وسنعرض في عنصر لاحق مختلف أعلامها من شعراء وغيرهم.

ثانيا: الواقع الديني للعرب قبل الإسلام وتجليات الفكر التوحيدي:

1- الوثنية:

¹ - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، ط2، 1993، ج06، ص: 449.

² - محمد سهيل طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص: 167.

يلاحظ أنّ أغلب العرب كانوا وثنيين عبدوا الأصنام والأوثان، وآمنوا بالدّهريّة التي تدّعي أنّ الطّبع هو المحيي وأنّ الدّهر هو المفني والتي وصف القرآن الكريم أتباعها بقوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [سورة الجاثية/ الآية 24].

وبالأحرى أنّ عقيدتهم الدينية مرّت بمراحل، اتسمت بطابع المرحلية وتطوّر المعتقد.

المرحلة الأولى: وهي عبارة عن عبادة وتقديس أشياء مادية محدّودة كالحجارة والأشجار والجمال... وعرفت تحت اسم حيوية المادّة. جعلت البدوي يتصوّر أنّ ثمة روحانية تتواجد في هذه الأشياء، وتعطيها فائدة حيوية تتحكّم بحركة الوجود البشري والكوني، وتكون جديدة بعبادة الإنسان¹. وهذا ما أقرّه شوقي ضيف ردّا على المستشرق رينان، حيث يقول: "وقد آمنوا بقوى خفية كثيرة في بعض النباتات والجمادات والطّير والحيوان، وليس بصحيح ما يزعمه رينان من أنّهم كانوا موحدين"².

وقد عبد العرب قديما الآبار في الصحراء القاحلة، وقدّسوا ماء زمزم التي أمّدت السيدة هاجر وابنها إسماعيل بالماء وعبدوا الشجر واعتقدوا أنّ الآلهة تسكن فيه.

المرحلة الثانية: وهي عبارة عن عبادة الأجرام السماوية، التي عرفتها بوجه خاص البلاد العربية الجنوبية، وكان من أهمّها الثالوث الإلهي الذي مثله القمر وزوجته الشمس وابنهما الزّهراء³ والتي قال فيها تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [سورة فصلت/ الآية 37].

عدّت هذه العبادات من مقومات المجتمع الجاهلي، فرضتها طبيعة المرحلة ومتطلبات الحياة، ولبّت أضواء أجرامها ما افتقده الإنسان في معرفة الوقت وتعيين الاتجاه، فعبد العرب القمر لتأثيره في تحسين المراعي بالظلّ والندى، وعبدت بين آلهة العرب أسماء لبعض هذه

¹ - ينظر معاليقي، صفحات مطوية، ص: 115.

² - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي -العصر الجاهلي-، ص: 89.

³ - ينظر منذر معاليقي، صفحات مطوية، ص: 115.

الأجرام كالشعري وسميت العبور؛ عبدتها قبيلة عبد قيس وخزاعة، والدبران الذي عبدته طسم، والثريا - عدة كواكب مجتمعة - عبدتها مذحج وقريش¹.

والظاهر عندي أنّ هذه الكواكب والأجرام كانت تعبد بالتناوب، فالظاهر منها كالشمس مثلاً يحجب الغائب، ويلفت النظر وقصة الخليل خير دليل على ذلك.

المرحلة الثالثة: وهي عبارة عن إيمان البدويّ بقوى إلهية أكثر شمولاً وتجريداً، تمثلت بظهور عبادة الأصنام وانتشار أوثانها وشيوع بيوت آلهتها، التي أضحت معروفة في أرجاء الجزيرة كلّها، والتي ارتكزت على الاعتقاد بأنّ الإله الذي يسكن حرماً أو بيتاً يلزم الناس على زيارته تبركاً واستعطافاً، وكان من أشهر الآلهة انتشاراً وأكثرها معرفة؛ اللات لأهل الطائف، والعزى لأهل مكة ومناة لأهل المدينة².

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض آلهتهم ورموزها من الأصنام والأوثان، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [سورة النجم/ الآية 19، 20]، ويقول كذلك: ﴿لَا تَدْرُنَّ إِلَهَتِكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وِدًّا وَلَا سُوعَاً وَلَا يَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [سورة نوح/ الآية 23].

وراء هذه الأصنام التي ذكرها القرآن الكريم، أصنام كثيرة كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية في الجاهلية، ويقال إنّه كان في الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة ثلاثمائة وستون صنماً، وكان أعظمها عند القرشيين " هبل "؛ وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، وجعلتها له قريش من ذهب، وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة قداح، مكتوب في أحدها " صريح " والآخر " مُلصَق ".

فإذا شكّوا في مولود أهدوا إليه هديّة ثمّ ضربوا بالقداح (السّهام) فإن خرج (صريح) الحقوه بأبيه، وإن خرج (ملصق) دفعوه...

¹ - ينظر منذر معاليقي، صفحات مطوية، ص: 116.

² - ينظر المرجع نفسه، ص: 117.

وقدح على الميت، وقدح على الزواج... وإذا اختصموا في أمرٍ وأرادوا سفراً أو عملاً فاستقسموا بالقداح عنده، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه... وعنده ضرب عبد المطلب بالقداح على ابنه عبد الله، وباسمه كان ينادي أبو سفيان في معركة أحد ويصيح: اعلُ هبل. ومن أصنامهم المشهورة، إساف ونائلة، رضا وتيم وشمس وذو الخلصة¹.

ويظهر جلياً ممّا قدّم لهم أنّ العرب كانوا يؤمنون بالأرواح، وأنها متمثلة وحالة في كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة، وكان منها أرواح خيرة هي الملائكة وأرواح شريرة هي الشياطين، وفي القرآن الكريم ما دلّ على ذلك: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانًا أَشْهَدُوا خَلْفَهُمْ سَوَّكُنَّ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [سورة الزخرف/ الآية 19].

فكانوا يزعمون أنّها نبات الله وكانوا يعدّونها - كأصنامهم - من شفعايم عند الله، ويعتقدون أنّها تقرّ بهم من الله.

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [سورة الزمر/ الآية 03].

ويقول صاحب المفصل: " ويذكر أهل الأخبار أنّ الجاهليين جميعاً كانوا قبل عمرو بن لحي الخزاعي على دين إبراهيم، كانوا موحدّين يعبدون الله جلّ جلاله وحده، لا يشركون به ولا ينتقصونه، فلما جاء عمرو بن لحي، أفسد العرب ونشر بينهم أضراباً من عبادة الأصنام، بما تعلّمه من وثني بلاد الشام حين زارهم، وحلّ بينهم، فكان داعية الوثنية عند العرب والمبشر بها، ومضللهم الأول وهو على رأيهم موزّع الأصنام بين القبائل، ومقسّمها عليها. فكان من دعوته عبادة تلك الأوثان، إلى أن جاء الإسلام فأعاد العرب إلى سواء السبيل... ولقد فشّت دعوة عمرو بن لحي الخزاعي وانتشرت، حتى دخل فيها أكثرهم والضلال سريع الانتشار"².

¹ - ينظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي -العصر الجاهلي-، ص: 91.

² - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج06، ص: 450.

يتضح لي ممّا سبق أنّ الوثنية دخيلة على العرب فهم على أصل التوحيد أو ما عرف عندهم بملة إبراهيم، ولكن طول الحقبة وبعد العهد حال بينهم وبين معتقدهم الأصلي، تأثراً بالغير أو ابتداءً من لدن أنفسهم.

2- المجوسية:

ورد في شعر بعض الجاهليين ذكر المجوسية، ولكن بصورة غير صريحة والمجوسية هي ديانة للفرس، وورد بعض الشعر الذي فيه تأثر واضح بالمجوسية التي كان أتباعها يعبدون النار، ونرى ذلك كما في قول " أوس بن حجر":

إذا استقبلته الشمس صدّ بوجهه كما صدّ عن نار المهول حالف¹.

فلعلّ في ذكر النار هنا واستخدامها في مناسبات مختلفة، وتقديسها أحيانا ما كان بتأثير الفارسية، أمّا هذا التأثير فليس مستغربا فقد عايش العرب الفرس، واتّصلوا بهم².

ولا ريب في أن يتأثر العرب بمن يجاورهم وذلك بحكم تجارتهم وترحالهم حتى ولو كان التأثير يسيرا، غير شائع بينهم.

3- الفكر التوحيدي في بلاد العرب:

1.3 اليهودية والنصرانية:

لا نصل إلى العصر الجاهلي حتّى نجد اليهود منتشرين في اليمن والحجاز... وقد استطاع يهود اليمن في أوائل العصر الجاهلي أو بعبارة أخرى في أوائل القرن السادس الميلادي أن يؤثروا في ملك من ملوك التبابعة هو ذو نواس، وأن يُدخِله في دينهم، وقد دفعوه دفعاً إلى التكييل بنصاري نجران وتحريقهم وفي ذلك نزلت الآيات الكريمة: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8)﴾ البروج. - على حدّ روايات كتب التاريخ والسير -.

¹ - أوس بن حجر، الديوان، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، دار بيروت، دط، 1980، ص69.

² - ينظر خالد علي سالم العدوان، المعاني الدينية في شعر شعراء ما قبل الإسلام، رسالة مقدّمة لاستكمال الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية، جامعة مؤتة، الأردن، 2007، ص: 08.

وربما كان السبب الحقيقي في استجابته لليهود أنه كان يخشى تغلغل النصرانية في بلاده وأن يفتح ذلك الأبواب لنصارى الحبشة، فيستولوا عليها دون مقاومة. على أن الأحباش سرعان ما انتقموا لإخوانهم، فأزلوا دولة ذي نواس سنة 525م وظلوا نحو خمسين عاما حتى أجلاهم عنها أهلها بمساعدة الفرس، ويظهر أن هذه الفترة التي قضاها الأحباش النصارى هناك كانت سبباً في تفرق اليهود وخروج كثيرين منهم من اليمن وتشتتهم في البلاد¹. ويرى البعض الآخر أن اليهود نزحوا إلى الحجاز من فلسطين في أعقاب حملة الرومان الأخيرة... بفعل امتدادها الطبيعي مع فلسطين وبعدها عن طرق الحملات العسكرية الرومانية، حيث تعزلها أقاليم رملية².

ويهود الحجاز كانوا قبائل وجماعات كثيرة انتشرت في واحات الحجاز: يثرب، وخيبر، ووادي القرى، وتيماء، وكان في يثرب عشائر كثيرة أهمها بنو النضير وقريظة وبنو قينقاع وبنو بهدل وقد نزل بينهم الأوس والخزرج وقد فرضت القبيلتان عليهم سيادتهما... وفي السيرة النبوية لابن هشام وطبقات ابن سعد ما يدل على أنهم كانوا يتدارسون دينهم في دار ندوة لهم تسمى المدارس وأنهم كانوا يقرؤون التوراة والزبور بلغتهم القديمة العبرية، ولكنهم اتخذوا العربية لغتهم اليومية ونظم فيها بعضهم شعراً عربياً³.

وتهود كذلك بعض أناس من كندة وكنانة وأشهر شعراء العرب من اليهود السموأل بن عاديا⁴.

وهو بهذا الانتماء يعدُّ من أهل الكتاب الذين عرفوا الله وعرفوا معنى الربوبية من خلال آبائهم وذلك كله خارج دائرة الوثنية وعبادة الأصنام.

وقد انتشرت - كذلك - النصرانية في اليمن وشمال الجزيرة الغربي والشرقي... ولا نصل إلى العصر الجاهلي حتى نرى النصرانية منتشرة في نجران وغيرها، ويظهر أن نجران كانت

¹ - ينظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي -العصر الجاهلي-، ص: 97، 98.

² - محمد سهيل، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص: 262.

³ - ينظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي -العصر الجاهلي-، ص: 98.

⁴ - محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992، ص: 58.

أهم مواطنها، وقد نكبهم ذو نواس... ويقال أن أبرهة أنشأ كنائس كثيرة في مدن اليمن واهتم بزينتها وزخرفتها، أشهرها القليس في صنعاء، وهي تعريب لكلمة Ecclisia اليونانية بمعنى الكنيسة... وكانت النصرانية منتشرة بين عرب الشام من الغساسنة وغيرهم مثل عاملة وجمام وكتب وقضاة... كما نفذت النصرانية إلى عرب العراق، أيضا إلى تغلب وإياد وبكر، وتغلغت في الحيرة على الرغم من ملوكها الوثنيين، فكان يعتنقها بها العباديون، وأغلب الظن أنهم سموا بذلك تمييزاً لهم عن جيرانهم الوثنيين، فهم عباد الله، ويزعم اليعقوبي أن قوماً تنصروا من قريش قبيل الإسلام منهم ورقة بن نوفل وعتبة بن أبي لهب وعثمان بن الحويرث الأسدي والمضنون أنه كان في المدينة بعض النصارى واليهم يشير "حسان بن ثابت" في رثائه للرسول صلى الله عليه وسلم¹ إذ يقول:

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد²

ولا يصح أن نبالغ في كون أن هؤلاء اليهود والنصارى العرب قد قاموا بتعاليم الديانتين قياماً دقيقاً فقد عرفوا الكنائس والبيع والرهبان والأساقفة والصوامع. ولكنهم ظلوا لا يتعمقون في هذا الدين الجيد وظلوا يخلطونه بغير قليل من وثنياتهم، وربما كان حتماً يوضح ذلك خير توضيح قول "عدي بن زيد العبادي":

سعى الأعداء لا يألون شراً عليّ وربّ مكة والصليب³

فهو يجمع في قسمه بين رب مكة الوثنية ورب الصليب... ومن يقرأ شعره لا يجد فيه فكرة التثليث المعروفة في النصرانية. والحق أن نصارى العرب في الجاهلية إنما عرفوا ظاهراً من دينهم أو قلما عرفوا حدوده، وقد سقطت إلى أشعارهم وأشعار الوثنيين أنفسهم كلمات و مصطلحات كثيرة منه ومن شخوصه وطقوسه⁴.

¹ - ينظر شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي -العصر الجاهلي-، ص: 99، 100.

² - حسان بن ثابت، الديوان، تح الشربيني شريدة، دار اليقين، مصر المنصورة، ط1، 2011، ص73.

³ - عدي بن زيد العبادي، الديوان، تح محمد جبار العبيد، دار الجمهورية، بغداد، ط1، 1965، ص:38.

⁴ - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي -العصر الجاهلي-، ص: 101.

يقول "امرؤ القيس":

يضيء سناه أو مصابيح راهب أهان السليط في الذبال المفتل¹

وذكر أوس بن حجر عيد الفصح الذي كانوا يحتفلون به فيوقدون المشاعل ويضيئون الكنائس، بالقناديل والمصابيح يقول:

عليه كمصباح العزيز يشبهه لفصح ويحشوه الذبال المفتلا²

وجرى على ألسنتهم كثير من أسماء الأنبياء، من مثل داود وكان يشتهر عندهم بنسجه للدروع المتينة القوية، ومن ثم يقول سلامة بن جندل في وصف بعض الدروع³.

مداخله من نسج داود سكتها كعب الجنامن أبلم متغلق⁴

ويكثر في شعر "الأعشى" و"أمية بن أبي الصلت" و"عدي بن زيد" القصص عن الأنبياء وسيرهم... كما يبدو في شعر نفر منهم إيمان بالله. يقول "عبيد بن الأبرص":

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب⁵

وكقول "زهير بن أبي سلمى":

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم⁶.

يظهر لي جلياً مما تقدم أنّ الشعراء تأثروا بوجود النصرانية بغض النظر عن كونهم منتصرين أو وثنيين وهذا ما أكسبهم صفة التأله، وتوظيف لفظ الجلالة وما يلزم عن ذلك من معتقدات ربّما هي أصلاً من لدن الحنيفية الإبراهيمية.

¹ - امرؤ القيس، الديوان، شرح هيثم جمعة هلال، دار مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 2012، ص:26.

² - أوس بن حجر، الديوان، ص:84.

³ - شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي -، ص:102.

⁴ - أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصبغي، الأصمعيات، تح، عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، دت، ص:111.

⁵ - عبيد بن الأبرص، الديوان، شرح أحمد أشرف عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994، ص:22.

⁶ - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص:111.

2.3. الحنيفية:

" نزعة دينية توحيدية عربية جاءت تعبيراً عن التوجهات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية نحو الوحدة، وبعد ظهورها بداية الثورة على الوثنية المتداعية وبداية الإرهاب الفعلي لظهور الإسلام، قامت بها جماعة مستتيرة عرفت باسم الحكماء والحنفاء تميّزت بمعارضتها لعبادة الأصنام ودعوتها إلى عبادة الإله الواحد كما ذكرنا وتعدّ هذه النزعة من أهم ما نتج على الصعيد الفكري من حركة المواصلات الدينية التي حرّكتها التجارة"¹.

وهذا بحكم أنّ العرب من طبيعتهم الحلّ والترحال؛ ينتقلون من مكان لآخر وفق ما تملّيه عليهم الظروف المتعدّدة التي أسلفنا ذكرها.

" وقد سمّت روايات المصادر هذه الجماعة بأسمائهم، والمعروف أنّ معظمهم عاش في الأيام الأخيرة من الجاهلية، وأنّ بعضهم أدرك الإسلام، وبعضهم الآخر تنصّر مثل عدي بن زيد العبادي وأرباب بن رثاب، وتحدّثت المصادر عن عقيدة كلّ واحد منهم بما يدلّ على أنّهم لم يكونوا متماثلين رأياً واعتقاداً، كما لم يكونوا على صلة تنسيقية فيما بينهم، ويعني ذلك أنّ الجامع بينهم هو مبدأ عام يلتقون عفويّاً على الأخذ به هو مبدأ رفض عبادة الأصنام وتعدّد الآلهة والإيمان بوجود إله واحد، إضافة إلى جانب سلوكي أخلاقي، ينسجم مع التزامهم الديني"².

فالعقل والحكمة من أبرز ما دفع هؤلاء وحرّك بداهتم حول ما يحيط بهم من ضلالات التفكير وسفاهة التفسير وقصور الاعتقاد.

ولعلّ هؤلاء الحنفاء قد نزّهوا أنفسهم عن أضرار الوثنية واستقبحوا عبادة الأصنام، واستعظموا خطورة وأد البنات وتمنّعوا عن شرب الخمر ولعب الميسر، فأمنوا بوجود إله

¹ - محمد سهيل طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص: 275.

² - المرجع نفسه، ص: 275.

واحد واستخلصوا لأنفسهم مذهباً تقياً ومنهم عثمان بن الحويرث وأمّية بن أبي الصلت وزهير بن أبي سلمى وورقة بن نوفل - ابن عمّ السيدة خديجة بنت خويلد - الذي اعتزل عبادة الأوثان وقرأ الكتب وامتنع عن أكل ذبائح الأوثان.

يقول "ورقة بن نوفل":

كلاً بل هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والد

أعواد وأبـدى وإليه المآب غـداً¹

وكذلك "أمّية بن أبي الصلت" الذي آمن بوحداية الله وحرّم على نفسه الخبائث من الأفعال؛ قال أثناء مرضه: "قد دنا أجلي وهذه المرضة منيتي وأنا أعلم أنّ الحنيفية حقّ ولكن الشكّ يداخني في محمّد وأنّ المنية عندما تأتي لا يفيدها مال ولا تتجيبها عشيرة هو القائل:

كلّ عيش وإنّ تطاولَ دهرًا منتهى أمره إلى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدالي في رؤوس الجبال أرعى الوعولا

فاجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر إن للدهر غولا²

و"زيد بن عمرو بن نفيل" الذي تألّه في الجاهلية، وترك عبادة الأصنام وغيرها من

العبادات الوثنية، قال يوماً:

تَرَكْتُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى جَمِيعاً كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْجَادُ الصَّبْرُ

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني غنمٍ أزور

ولا هبلاً أزور و كان ربّاً لنا في الدهر إذ حلّمي صغير³.

¹ - منذر معاليقي، صفحات مطوية، ص: 118.

² - أمّية بن أبي الصلت، الديوان، شرح وتعليق سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة، دط، ص: 57.

³ - منذر معاليقي، صفحات مطوية، ص: 119.

والظاهر أنّ هؤلاء الحنفاء أدركوا الوحدانية التامة لله عزّ وجلّ وكانوا على نهج إبراهيم الخليل وهذا ما يتبدّى جلياً في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة آل عمران/ الآية 67].

نخلص مما سبق إلى أنّ الحنيفية واليهودية مع النصرانية بالإضافة للوثنية؛ من أبرز الانتماءات الدينية التي كانت سائدة وواضحة في الجزيرة العربية رغم تفاوتها واختلاف وجهات النظر تجاهها، وهذا ما يثبته دائماً الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا مع ما فيه من نحل ووضوح.

ثالثاً: الشعراء المتألهون:

تحدّثنا فيما سبق عن ذلك الاضطراب في المعتقد عند العرب قبل الإسلام، وتلك الفوضى العقديّة الناجمة عن البحث عن المعبود في ظلّ الظروف المتداخلة والمعطيات المتقلّبة، ومع هذا كلّه تبرز طائفة المتألهين كتيار ضدّ ما تعوّدت عليه العرب وألفته.

فالعربيّ قد عاش للحياة الحاضرة، ولم يشغل ذهنه بشيء من مسائل ما وراء الطبيعة. ومع كلّ هذه الاعتبارات فقد وجدت لهذه القاعدة شواذ - شأن كلّ قاعدة - فإنّ وجود جماعات شتى من متألّهي العرب الذين يدينون بوحداية الله تعالى، وإن اختلفت وجهاتهم، وتباينت نحلهم لتدّين بعضهم باليهودية أو المسيحية كان أمراً له خطره عند العرب وله أثره في نفوسهم، إذ كان أولئك المتألهون لا يفتوّون يبيثون عقائدهم فيمن حولهم من العرب، ومن ثمّ رأينا في أواخر القرن السادس الميلادي لبعض الشعراء دلائل وآثاراً لإيمان عميق بوحداية الله تعالى، ورأينا منهم شعوراً يقضاً بالنّبعة المترتبة على ما تصنعه أيديهم من خير أو شرّ، وهذه الفئة التي ترى هذا الرأي هي طائفة الحنفاء*... وكانت شريعة الحنفاء سمحة رشيدة واضحة المحجّة سهلة الإقناع لهؤلاء العرب العمليين، هي في جوهرها صالحة لأن تكون دين العرب قاطبة¹.

ويذكر لنا العلامة " الشنتمري " جملة من الشعراء المتألهين وهم كما يأتي: " قس بن ساعدة الإيادي، زيد بن عمرو بن نفيل، أرباب بن رثاب، سويد بن عامر المصطلق، أسعد بن كرب الحميري، عدي بن زيد، وكيع بن سلمة الإيادي، عمير بن جندب الجهني، ورقة بن نوفل، أبو قيس صرمة بن أبي أنس، عامر بن الظرب العدواني، عبد الطابخة بن تغلب، علاف بن شهاب التميمي " ².

وبضيف عماد الصبّاغ في كتابه الأحناف جملة من المتألهين بالإضافة إلى من ذكروا ويؤكد على أنّ هذه الأسماء التي وصلتنا عن حنفاء الجاهلية، هي حصراً أسماء الذين

* الحنفاء من الحنيفية وهي الميل لملة الخليل إبراهيم عليه السلام وترك عبادة الأوثان.

¹ - ينظر كامل كيلاني، الوعظ القصصي، مؤسسة هنداوي، القاهرة، ط1، ص: 88.

² - يوسف سليمان الشنتمري، أشعار الشعراء السنة الجاهليين، دارالآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1983، ح2، ص: 309.

عاشوا قبل الدعوة الإسلامية بزمن وجيز، والذين عاصر قسم منهم الإسلام - كلبيد بن ربعة العامري - وما وصلنا ينبئ أنّ هؤلاء قد انتشروا في مختلف أرجاء شبه الجزيرة وعبر قبائلها المختلفة في الشمال والجنوب وهذا ما نلمسه من أسماء هؤلاء وانتماءاتهم القبلية وهم بحسب الإخباريين: " أمية بن أبي الصلت الثقفي، المتلمس بن أمية الكناني، عبيد بن الأبرص الأسدي، كعب بن لؤي بن غالب"¹ وغيرهم.

فمن هؤلاء من تنصّر ورأى في النصرانية ملاذاً وهروباً من واقع الوثنية كورقة بن نوفل وعدي بن زيد، ومنهم من كان يهودياً كالسموأل بن عادي، ومنهم من لم يقنع بالديانتين وبقي يبحث عن الذات الإلهية في كنف الحنيفية الإبراهيمية.

ولم تلق مبادئ الشعراء الأحناف بصفة والمتألهين بصفة عامّة قبولاً عند زعماء المجتمع الجاهلي الوثني المشرك " إذ كانت تشكّل خطراً على مصالحهم وديانتهم، فدين التوحيد الذي يدعو إليه الأحناف يتعارض كلياً مع التعددية الوثنية التي كانت مصدر رزق وافر لهم، وخاصة في موسم الحجّ، إذ تجتمع القبائل في مكة وتنتج كلّ منها إلى تعظيم الصنم الخاص بها، وهذا يعني أنّ إجماع الناس على الحنيفية سيؤدي إلى خسارة أولئك الزعماء لمكتسباتهم ومكانتهم وهذا ما دفعهم إلى الوقوف بوجه دعوة الأحناف وإيذائهم ومعاداتهم.

وأبرز مثال على ذلك اضطهادهم لزيد بن عمرو بن نفيل، وكان الخطّاب بن نفيل عمّه، قد وكّل به شباباً من شباب قريش، وسفهاء من سفهائهم كلّفهم ألا يسمحوا له بدخول البلدة ويمنعه من الاتصال بأهلها، مخافة أن يفسد عليهم دينهم، وأن يتابعه أحد منهم على فراق ما هم عليه، واضطر زيد إلى المعيشة في هذا المحلّ، معتزلاً قومه، إلاّ فترات كان يهرب خلالها سرّاً ليذهب إلى موطنه ومسكنه، فكانوا إذا أحسّوا بوجوده هناك ألموه وآذوه"².

ولعلّ هذه الأذية في حدّ ذاتها كانت إرهاباً لقدوم مخلص يرفع الجور والاعتداء والظلم والعصبية على هؤلاء الذين قذفت في نفوسهم بوادر التوحيد والإيمان بالله الواحد.

¹ - عماد الصبّاغ، الأحناف، دار الحصاد، دمشق، ط1، 1998، ص:33.

² - علي رباح، البحث عن الذات في الشعر الجاهلي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، سوريا، 2013، ص:59.

رابعاً: موضوعات ميّزت شعر المتألهين:

أورد المتألهون في أشعارهم معارف وقيماً جديدة، تتعارض في معظمها مع الواقع المعيش لدى المجتمع الجاهلي، وهذا ما ميّزهم عن غيرهم من الشعراء، ولعلّ أبرزها:

1-الإيمان بالله:

أول هذه الموضوعات وأهمّها، مجال التوحيد، وتتنّح فيه عقيدتهم وضوحاً تاماً فهم يحرصون على إثبات أنّ إلههم واحد، لا يعبدون سواه ولا يشركون معه إلهاً آخر. فالله هو ربّ السّماء الذين تتعبّد له كل المخلوقات وتسبّح بحمده، وتخشع لملوكته: ولو قيل أنّ هناك ربّاً غيره، لكذب عباده جميعاً هذه الفرية اعترافاً بوحدانيّته وتنزيهاً له¹.

يقول "أميّة بن أبي الصلت"²:

إذا قيل من ربّ السّما فليس سواه له مضطرب

ولو قيل ربّ سوى ربّنا لقال العباد جميعاً كذب

والله واحد أحد، ليس له شريك في الملك، علّام الغيوب وما تخفى القلوب وبالله يدرك كلّ خير، يقول "عبيد بن الأبرص"³:

والله ليس له شريك

علام ما أخفت القلوب

بالله يدرك كلّ خير

والقول في بعضه تلغيب

والتوحيد في مفهوم الحنفاء يهدم كلّ شرك، إنهم يقرّون بأنّه الواحد الحيّ الدائم الباقي، الوارث لكل المخلوقين، المحيط بكل شيء، القادر على كل شيء لذلك فهم يركّزون على هذا الجانب في شعرهم⁴.

¹ - ينظر أحمد جمال العمري، الشعراء الحنفاء، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1981، ص: 158، 159.

² - أميّة بن أبي الصلت، الديوان، ص: 20.

³ - عبيد بن الأبرص، الديوان، ص: 23.

⁴ - أحمد جمال العمري، الشعراء الحنفاء، ص: 160.

2- الإيمان بالبعث ويوم الحساب:

وهذا ما ينكره أغلب العرب في المجتمع الجاهلي، ودليل ذلك ردّهم وتكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم في حقيقة أنّ الله يحي العظام وهي رميم، بينما يثبت المتألهون ذلك؛ بل ويجعلونه عقيدة لا مفرّ منها. يقول "أميّة بن أبي الصلت"¹:

إلا دين الحنيفية زور

كل دين يوم القيامة عند الله

ويقول "زيد بن عمرو بن نفيل"²:

يوم الحساب إذا ما يجمع البشر.
وللكفار حامية سعير.
يلاقوا ما تضيق به الصدور.

فلن تكون لنفسٍ منك واقية
تري الأبرار دارهم جنان
وخزي في الحياة وإن يموتوا

ويقول "قس بن ساعدة الإيادي"³:

عليهم من بقايا خزهم خرق
كما ينبه من نوماته الصدق
خلق مضي ثم هذا بعد ذا خلقوا

يا باكي الموت والأموات في جدث
دعهم فإنّ لهم يوماً يصاح بهم
حتى يجيئوا بحال غير حالهم

ويقول "زهير بن أبي سلمى"⁴:

ليوم الحساب أو يُعجل فينتقم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر

وعليه فدلالة هذه النصوص واضحة، وتثبت إدراك هؤلاء لحقيقة البعث والحساب بعد الموت.

1 - أميّة بن أبي الصلت، الديوان، ص:47.

2 - عماد الصباغ، الأحناف، ص: 50.

3 - المرجع نفسه، ص:50.

4 - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص:111.

3- التأمل في مخلوقات الله:

بعد أن أقرّ المتألهون بتوحيد الله وتنزيهه وأثبتوا له القدرة والعظمة المطلقتين، توجّهوا إلى التأمل في مخلوقات تحيط بهم هي ذاتها دليل الربوبية والجبروت.

" فوجّهوا أبصارهم وعقولهم صوب السّماء والأرض لمعرفة ما يحدث فيها وما يطرأ عليهما، وتمعنوا في حركة دوران الشمس والقمر واستخلصوا من ذلك الأدلّة في التوحيد أدلّة من صنعه، تبرز آيات إعجازه في إبداع الكون"¹.

يقول "أميّة بن أبي الصلت"²:

إنّ آيات ربّنا باقيات ما يماري فيها إلاّ الكفور
خلق اللّيل والنّهار فكلّ مستبين حسابّه مقدور
ثمّ يجلو النّهار ربّ كريم بمهارة شعاعها منشور

فهو يقول: إنّ آيات الله واضحة ناصعة لا تحتاج إلى دليل، ولا يستطيع أن يماريها أو ينكرها إلاّ الكفور، وتتّضح أول ما تتّضح في خلق اللّيل والنّهار وتعاقبهما، والشمس والقمر فكل يدور في فلكه وفقاً لمشيئته وتقديره.

ويتأمل زهير في مخلوقات الله، ويتساءل: هل يرى النّاس من الرشد ما يرى من الأمر الجليل الواضح الذي يثبت قدرة الله في الكون، فبإرادته يسير كل شيء ويتحرك كل مخلوق ويشهد على ذلك أطلال وآثار السّالّفين الغابرين الذين طوتهم قدرة الله، فأقبرتهم³. ويصل في الأخير إلى حقيقة جليّة هي عظمة الخالق في صنعه، والتي تدل عليه.

¹ - أحمد جمال العمري، الشعراء الحنفاء، ص 167.

² - أميّة بن أبي الصلت، الديوان، ص: 47.

³ - ينظر أحمد جمال العمري، الشعراء الحنفاء، ص 168.

فيقول " زهير بن أبي سلمى"¹:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى
بدا لي أنّ الله حَقٌّ فزادني
وإني متى أهبط من الأرض تلعّة
أراني إذا ما بثُّ بثُّ على هوى
إلى حفرةٍ أهدى إليها مقيمةً
كأني وقد خلفتُ تسعين حجةً
بدا لي أنّي لستُ مُدركٌ ما مضى
ألا لا أرى على الحوادثِ باقياً
والآ السّماءَ والبلادَ وربّنا
أراني إذا ما شئتُ لأقيتُ آيةً
من الأمرِ أو يبدو لهم ما بدا لي
إلى الحقِّ تقوى الله ما كان بادياً
أجد أثراً قبلي جديداً وعافياً
فثمّ إذا أصبحتُ أصبحتُ غادياً
يحثُّ إليها سائقٌ من ورائيا
خلعتُ بها عن منكبِّي رداًنيا
ولا سابقاً شيئاً إذا كان جائياً
ولا خالداً إلاّ الجبالَ الرواسيا
وأيماناً معدودةً واللياليأ
تذكرني بعضَ الذي كنتُ ناسيا

ويقول " لبيد في داليتة"² بعد أن تأمل مخلوقات الله تعالى:

فواعجباً كيف يعصى الإ
وفي كلّ شيء له آية
ولله فني كلّ تحريكة
له أم كيف يجحده الجاحد
تدلّ على أنّه واحد
وتسكينه أبداً شاهد

4- الإيمان بالملائكة:

لا ينكر أحد أنّ العرب قد عرفوا وأيقنوا بوجود مخلوقات مستترة ربّما يُسمونها في غالب الأمر بالجن.

والذي تدل عليه آيات القرآن الكريم أنّ العرب كانوا يعرفون الملائكة وإن اختلفت درجة هذه المعرفة فيما بينهم، ولا تظنّ أن هذه الآيات الكثيرة تخاطب قوماً لا علم لهم بها، ولا عبرة برأي من يذهب إلى أنّ الجاهليين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الملائكة، لأن الاعتقاد

¹ - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 141، 142.

² - لبيد بن ربيعة العامري، الديوان، دار صادر، بيروت، ط1، ص: 232.

بالملائكة من عقيدة الديانة اليهودية ثم النصرانية¹. وقد عرف العرب وخاصة الحنفاء المتألهين أشياء عن الملائكة وذلك بحكم اتصالهم بأهل الكتاب.

وكان أهل الجاهلية يسمّون الملائكة جنّا لاستنثارهم عن العيون أمّا أمية بن أبي الصلت فيذكر الملائكة وأنّ السّماء مقاعد لهم، وهم عباد الله، أشداء لكنّهم مع ذلك مطيعون لله² فيقول³:

بإذن الله فاشتدت قواهم على ملكين وهي لهم وثاب
وفيها عن عباد الله قومٌ ملائك نلّوا وهم صعاب

ونرى ورقة بن نوفل يذكر لنا أسماء بعض الملائكة ومنهم جبريل وميكائيل وذلك عندما أخبرته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها بما حدث له - صلى الله عليه وسلّم في غار حراء ثم أخبرها أنّه يأتيه الناموس الذي أنزل على موسى، قال⁴:

إن يك حقّاً يا خديجة فاعلمي حديثك إيّانا فأحمد مرسل
وجبريل يأتيه وميكال معهما من الله وحي يشرح الصّدر منزل

فالمتألهون عرفوا الملائكة في رحلة بحثهم عن حقيقة الكون، ونتيجة لاحتكاكهم بأهل الكتاب، والتأثر بمعارفهم وأخبارهم.

5- موضوع القضاء والقدر:

من الموضوعات التي شغلت المتألهين كثيراً موضوع القضاء والقدر، خيره وشره. فسويد بن عامر المصطلق يرى أنّ المنيا مقدّرة على الإنسان وأنها محتومة لا مفرّ منها وأنّ الخير والشرّ مكتوبان على النّواصي وليس لامرئ يد فيما يصيبه القدر.

¹ - جواد علي، المفصل، ج06، ص:738.

² - حبيب الزهراني، أدب الحنيفية في العصر الجاهلي، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية وآدابها، جامعة أم القرى، 1406هـ، ص:244.

³ - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص22.

⁴ - غسان عزيز حسين، ورقة بن نوفل مبشر الرّسول عصره - حياته - شعره، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002، ص:146.

فيقول "سويد"¹:

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم
واسلك طريقك تمشي غير مجتثع
فكلّ ذي صاحب يوماً يفارقه
والخير والشرّ مقرونان في قرن
إنّ المنايا بكفّي كل إنسان
حتّى يبيّن ما يمّني لك الماني
وكل زاد وإن أبقيته فاني
بكلّ ذلك يأتيك الجديان

ويؤكد "زهير بن أبي سلمى" هذه الفكرة وهو الذي حنكته الأيام وعاش فيها ثمانين عاماً ورأى كلّ شيء يحدث حوله، وكيف أنّ المنايا قدر مقدور على العباد، إذا أصابت فرداً أمّنته فأقبرته، وإذا أخطأته عمّر وهرم ويضيف زهير إلى ذلك أنّ علم الأقدار عند الله يختص به، أمّا الإنسان فقد يعلم ما يحدث أمامه في يومه وما حدث له في أمسه، ولكنّه عن علم ما تخبئه له الأقدار في غده جاهل² فيقول³:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
وأعلم علم اليوم والأمس قبله
ولكنني عن علم ما في غد عمّ
ثمانين حولاً لا أبالك يسأم
تمته ومن تخطئ يعمر فيهم

وأما "البيد" فيرى أنّ كل كائن حيّ لا بدّ له من زوال ولا يبقى إلاّ أثره وما أراد الله له أن يبقى، وأنّ المال والأهل ما هم إلاّ ودائع في هذه الدنيا الزائلة، حيث يقول⁴:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع
وما المرء إلاّ كالشهاب وضوئه
وما المال والأهلون إلاّ ودائع
ولا بد يوماً أن تردّ الودائع
وتبقى الديار بعدنا والمصانع
يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

فالبقاء عنده مشروط بما قضاه الله عزّ وجلّ وقدره في كل ما يتعلّق بحياة المرء.

¹ - أحمد جمال العمري، الشعراء الحنفاء، ص: 173 (نقلا عن بلوغ الأرب للألوسي، ج02، ص: 259).

² - المرجع نفسه، ص: 174.

³ - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 114.

⁴ - بيد بن ربيعة، الديوان، ص: 88.

6- قصص الأنبياء:

أخبار الأمم السالفة، بما فيهم أنبياء الله تعالى، تروى ويتداولها الناس شفاهة أبا عن جدّ ويعتبر أهل الكتاب من يهود ونصارى كمرجع عند الجاهليين في هذه القصص وما يتعلّق بأنبيائهم، وبحكم أنّ المتألهين كان لهم اتّصال بهؤلاء فلا شك أنهم سيوظّفون ذلك في أشعارهم ونثرهم بصفة عامّة، فيقول "زيد بن عمرو بن نفيل"¹:

وأنت بفضل منك نجيت يونساً وقد بات في أضغاف حوت لياليا

وأنت يقطيناً عليه برحمة من الله لولا ذاك أصبح ضاحياً

ولأميةّ الباع الكبير في ذكر أخبار الأنبياء بحكم اطلاعه على كتب النّصارى فيقول² متحدثاً عن نوح عليه السّلام:

جزى الله الأجلّ المرء نوحاً جزاء البرّ ليس له كذاب

لما حملت سفينته وأنجت غداة أتاهم الموت القلاب

وعن إبراهيم عليه السلام يقول³:

ولإبراهيم الموقّي بالند ر احتساباً وحامل الأجزاء

بكره لم يكن ليصبر عنه لو رآه في معشر أقتال

أبنيّ إني نذرتك لله شحيطاً فاصبر فذاك حالي

7- الحكمة والموقف الأخلاقي المعرفي:

الحكمة نظرة صائبة في الحياة، ومعرفة بحقائق الأمور على ماهي عليه بقدر الاستطاعة، وهي العلم الذي يصوّر فلسفة الحياة لذلك كان للحكمة في شعر هؤلاء أهمية كبيرة. فانسابت على ألسنتهم أشعار الحكمة لتصوّر نظراتهم في الحياة وخبراتهم في المجتمع الذي يعيشون فيه وهي حكمة تفصح عمّا امتازوا به من تعقّل ورزانة ورصانة في ملاحظة الأشياء وتقديرها وتصويرها من خلال أنفسهم ومعاناتهم ومسايرتهم لمجتمعهم.

¹ - عماد الصبّاغ، الأحناف، ص: 55.

² - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص: 20.

³ - المرجع نفسه، ص: 63.

فيقول "أمية" في رائيته¹، أنه لا يستوي في هذه الدنيا العالم والجاهل ولا البصير والأعمى وما دام الأمر كذلك، فعلى المرء أن يستشير الناس، ويستخبرهم فيما يجله فما خاب من استشار:

وليس ذو العلم بالتقوى كجاهلها ولا البصير كأعمى ما له بصر
فاستخبر الناس عما أنت جاهله إذا عميت فقد يجلو العمى الخبر
ويقول "زهير بن أبي سلمى"²:

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

يعني يميناً أو منافرة إلى حكم يقطع بالبينات أو جلاء وهو بيان وبرهان يجلو به الحق وتتضح الدعوى وهو تقسيم كان يعجب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويقول: لو أدركته لوليته القضاء لحسن معرفته ودقة حكمه³.

ومن حكم "عبيد بن الأبرص"⁴:

وكلّ ذي إبلٍ موروث وكلّ ذي سلبٍ مسلوب
وكلّ ذي غيبةٍ يؤوب وغائب الموت لا يؤوب
أعقر مثل ذات رحم أو غانم مثل من يخيب
أفلح بما شئت فقد يبلغ بال ضعف وقد يخدع الأريب

فصاحب الإبل أو المال بصفة عامّة موروث لا محالة، ومن سلب الناس أشياء تسلب منه أشياء، والغائب يعود ذات يوم ما لم يمت، ودرجة الولود خير من العاقر، والغانم ليس كالخائب، فعش كما شئت فقد يدرك الضعيف حاجته وقد يخدع الأريب، فاعمل ما شئت فإنّه كما تدين تدان.

1 - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص:41.

2 - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص:11.

3 - أحمد جمال العمري، الشعراء الحنفاء، ص:188.

4 - عبيد بن الأبرص، الديوان، ص21، 22.

وبناء على أبرز هذه الموضوعات وغيرها في شعر المتألهين، تتجلى جملة من الإرهاصات في قالب أفكار تبنها هؤلاء المتألهون واعتقدوها، وإن كانت في ظاهرها تخالف جملة ما تعارف عليه معظم الجاهليين، وهذا ما سنحاول الوقوف عليه وكشفه، في مختلف أشعار هؤلاء وبيان إلى أي مدى كانت هذه الأفكار إرهاباً للدين الجديد الذي غير نمط التفكير والمعتقد عند العربي الجاهلي، الذي عاش أحقاباً في حضن الوثنية ومختلف المعتقدات الفاسدة.

الفصل الثاني:

الإرهاصات في شعر المتألهين

- أولاً: تَفَاوُلُ المتألهين بقدوم النبيّ.
- ثانياً: دعوة المتألهين بالله وتوحيده.
- ثالثاً: المتألهون ويوم الحساب.
- رابعاً: المتألهون وظاهرة التأمل في الكون.
- خامساً: المتألهون وأخبار الأولين.
- سادساً: التألهون ونظرتهم للقضاء والقدر.
- سابعاً: قيم سعى إليها المتألهون.

أولاً: تَفَاوُلُ المتألهين بقُدومِ النَّبِيِّ:

طال انقطاع الجاهليين عن الرّسل، بل أنّ العرب في جاهليتهم كانوا لا ينتظرون بعثة رسول منهم، باستثناء أهل الكتاب الذين كانوا على يقين بأنّه سيُبعثُ رسول، مُصدّقاً لقوله تعالى على لسان عيسى بن مريم: ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [سورة الصف/الآية 06] ، ومع ذلك لم يؤمنوا به وكذبوه مع علمهم السّابق وقد صدق تعالى حين قال فيهم: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة/الآية 89].

فالمتألهون من الشعراء سواءً كانوا نصارى أو يهود أو حنفاء، قد كانوا على دراية تامّة بهذه الحقيقة، من خلال أخبار السّالفين وكتبهم، فنجدُ " أميّة بن أبي الصّلت " يستبشرُ بقُدومِ النبي ويتمنى ذلك، من أجل أن يخبرهم الرّسول بما لهم بعد اندثارهم وانقضاء الحياة، واصلاً لحقيقة أنّ الآخرين سيلحقون بالأولين لا محالة فيقول فيما يروى عنه¹:

ألا نبِيّ لنا مِنَّا فَيُخْبِرُنَا	ما بُعِدُ غَايَتِنَا مِن رَأْسِ مَجْرَانَا
بَيِّنَا يُرَبِّبُنَا أَبَاوْنَا هَلْ كُؤَا	وَبَيْنَمَا نَقْتَنِي الْأَوْلَادَ أَفْنَانَا
وَقَد عَلِمْنَا لَو أَنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُنَا	أَن سَوْفَ يُلْحَقُ أَخْرَانَا بِأَوْلَانَا
وَقَد عَجِبْتُ وَمَا بِالْمَوْتِ مِن عَجَبٍ	مَا بَالِ أَحْيَانِنَا يَبْكُونُ مَوْتَانَا

فهذا إرهابٌ واضح من أميّة في قالب التمني، يدلّ على حقيقة أنكرها الجاهليون العرب، بل ولم يفكروا فيها إطلاقاً، وهي قُدُومُ مَنْ سَيُعَيَّرُ لَهُمْ معارفهم ويُقَوِّمُ لَهُمْ قيمهم، أو يُتَمِّمُ لَهُمْ أحسن ما عرفوا به من مكارم قد ميّزتهم عن غيرهم من بني البشر .

¹ - أمية بن أبي الصّلت، الديوان، ص: 79.

وفي شعر "ورقة بن نوفل" استبشار ظاهرٌ وصريح بظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك لأنه تنصّر ووقف على ذلك في كتب النصارى، حيث يقول مؤظفاً ما قصته علي خديجة رضي الله عنها¹:

ووصف من خديجة بعد وصف	فقد طال انتظاري يا خديجا
بما خبرتنا من قول قس	من الرهبان أكره أن يعوجا *
بأن محمداً سيسود فينا	ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور	يقيم به البرية أن تموجا
فيلقى من يحاربه خساراً	ويلقى من يسألهم فلوجا **
فيا ليتني إذا ما كان ذاكم	شهدت فكنت أولهم ولوجا

كما يقرن ظهور النبي وبعثته بإرسال هود وصالح وموسى وإبراهيم، وسيحظى بالدرجة الرفيعة والمنزلة العظيمة، حيث يقول ورقة²:

وأخبار صدق خبرت عن محمد	يخبرها عنه إذا غاب ناصح
يخبرنا عن كل حبر بعلمه	وللحق أبواب لهن مفاتح
بأن ابن عبد الله أحمد مرسل	إلى كل من ضمت عليه الأباطح
وظني به أن سوف يبعث صادقاً	كما أرسل العبدان هود وصالح
وموسى وإبراهيم حتى يرى له	بهاء ومنشور من الذكر واضح

إلى أن يقول:

فإن أبق حتى يدرك الناس أمره	فإني به مستبشر الود فارح
-----------------------------	--------------------------

ففي الأبيات دلالات واضحة، لا تحتاج إلى تأويل، بأن ورقة المتأله مؤقن بالبعثة، وفق ما قرأ في كتب أهل الكتاب وما يمليه عليه توحيد الله عز وجل، الذي بعث الأنبياء أمثال هود وصالح وموسى وإبراهيم قبل أن يُبعث محمداً صلى الله عليه وسلم، مُرهباً ومتعهداً بالإيمان به إن هو أدرك ذلك.

¹ - غسان عزيز حسين، ورقة بن نوفل مبشر الرسول، ص: 121، 122، 123.

* - يعوج: ينعطف ويميل أي يخاف أن يتغير هذا الأمر.

** - فلوجا: فوزاً

² - غسان عزيز حسين، ورقة بن نوفل مبشر الرسول، ص: 127، 128، 129.

فقد أورد صاحب الرّحيق المختوم أنّ ورقة بن نوفل: " كان شيخًا كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن العم، اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلّم خبر ما رآه، فقال له ورقة: هذا النّاموس الذي نزلّه الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: " أو مخرجي هم؟" قال نعم، لم يأت رجل قطّ بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرا، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي"¹.

ثانيا: دعوة المتألهين للإيمان بالله وتوحيده.

تدرك العرب أنّ الخالق هو الله تعالى لا سواه، حقيقة أكّدها القرآن في حدّ ذاته، حيث يقول تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة لقمان/ الآية 25].

ولكنهم يجعلون له شركاء من أصنام وأوثان وذلك ليقربوهم إليه، زلفى، قال تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [سورة الزمر/ الآية 03].

وهذا المعتقد الفاسد عارضه المتألهون ودعوا إلى الإيمان بالله وتوحيده، وحذروا من الشرك، مؤكدين على أنّ الله لا تخفى عليه خافية، حيث يقول " زيد بن عمرو بن نفيل"²:

ألا أيها الإنسان إياك والردى	فإنك لا تخفى من الله خافياً
وإياك لا تجعل مع الله غيره	فإن سبيل الرشد أصبح بادياً
رضيتُ بك اللهم رباً فلن أرى	أدين إلها غيرك إله ثانيا

فالتّوحيد في منظورهم يهدم كلّ شرك، فهم لا ريب يركزون على هذا الجانب في أشعارهم.

يقول "أمية"³:

ألا كل شيء هالك غير ربنا والله ميراث الذي كان فانيا

¹ - صفى الرحمان المباركفوري، الرّحيق المختوم، دار الوفاء، المنصورة، ط17، 2005، ص:76.

² - أحمد جمال العمري، الشعراء الحنفاء، ص:160، (نقلا عن الألويسي، بلوغ الأرب، ج2، ص:249).

³ - أمية بن أبي الصلت ، الديوان، ص:88.

ولي له من دون كلّ ولاية إذا شاء لم يمسا جميعا مواليا
وإن يك شيء خالداً أو معمرًا تأمل تجد من فوقه الله باقيا

وهذا ما أقرّه القرآن الكريم بعد البعثة، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة القصص/ الآية 88].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [سورة الرحمن/ الآية 27]. وفكرة التوحيد وتنزيه الخلق، جعلتهم يندبون الأصنام ويترفعون بأنفسهم ويسمون بعقولهم، أن تتحط فيشركون مع الله غيراً، لذلك سمعنا " زيد بن عمرو بن نفيل " يتعجب من الذين يشركون مع الله آلهة أخرى ويتساءل عن حقيقة الوجدانية فيقول¹:

أرباً واحداً أم ألف ربٍّ أدين إذا انقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجأذ الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمي بني عمرو أزور
ولا غنما أدين وكان رباً لنا في الدهر إذ حلمي يسير

فهذه العقيدة عند المتألهين ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحنيفية الإبراهيمية التي يدين بها معظمهم.

يقول " أمية بن أبي الصلت"²:

كل دين يوم القيامة عند الله — إلا دين الحنيفة زور

وهذا إرهابٌ لمعرفة وحقيقة أقرّها الإسلام وأكدها، يقول تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران/ الآية 85]. والاعتراف بربوبية الله تعالى عند المتألهين، غالباً ما يقرن بالإيمان به، فأمية يدعو الله أن يثبتته على الإيمان مادام حياً حيث يقول³:

يا رب لا تجعلني كافراً أبداً واجعل سريرة قلبي الدهر إيمانا

¹ - أحمد جمال العمري، الشعراء الحنفاء، ص: 161، (نقلا عن: الألويسي، بلوغ الأرب ج2، ص: 249، والأغاني،

ج3، ص: 124). وينظر عماد الصباغ، الأحناف، ص: 49.

² - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص: 47.

³ - نفسه، ص: 79.

ومن الملاحظ أنّ فكرة التوحيد عند المتألهين الحنفاء تُخالف ما كان عليه نظراؤهم في اليهودية والنصرانية، إذ أنّ اليهود يقولون " عزير بن الله " والنصارى يقولون " المسيح ابن الله "، وهذا ما نصّ عليه جلّ وعلا في قوله : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۗ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ۗ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ۗ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۗ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (30) اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۗ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (31) ﴾ [سورة التوبة/ الآيتان 30، 31].

وعليه فالحنفاء المتألهون تبنوا التوحيد الخالص من الشوائب، وفق العقيدة النقية؛ ملّة إبراهيم¹.

وهذا الإيمان بالخالق، جعل المتألهين يسندون صفات الله تعالى، قد بينها رسول الله صلى الله عليه وسلّم من بعدهم، كون الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام وما دعا إليه إبراهيم الحنيف، يخرج من مشكاة واحدة. يقول " لبيد بن ربيعة"²:

كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَى كِتَابًا وَعِلْمًا وَلِدِيهِ تَجَلَّتِ الْأَسْرَارُ.

ومعنى البيت هو ذاته ما ترمي إليه الآية القرآنية في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [سورة يس/ الآية 12]. فكلّ شيء قد قدره الله تعالى في كتاب محفوظ، فيه علم الأولين والآخرين ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وهو عندهم قاسم الأرزاق بين الناس، والمعطي الذي لا يخيب من يسأله ويطرق بابه. يقول " لبيد"³:

فأفْعَ بِمَا قَسَمَ الْمَلِيكَ فَإِنَّمَا قَسَمَ الْخَلَائِقَ بَيْنَنَا عَلامَهَا
ويقول "عبيد بن الأبرص"⁴:
مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وَسَأَلِ اللَّهَ لَا يَخِيبُ

¹ - ينظر العمري، الشعراء الحنفاء، ص: 162، 163.

² - لبيد بن ربيعة، الديوان، ص: 76.

³ - لبيد بن ربيعة، الديوان، ص: 179.

⁴ - عبيد بن الأبرص، الديوان، ص: 22.

كما يثبت "أمية" صفة القدرة والهيمنة لله عز وجل على مخلوقاته فلا شيء يعلو عليه في عرشه، وهو العزيز الذي تقصده الوجوه وتسجد له. فيقول "أمية"¹ :

لك الحمد والنعماء والملك ربنا
فلا شيء أعلى منك مجداً وأمجداً
ملك على عرش السماء مهيمن
لعزته تغنو الوجوه وتسجد

وهي ذاتها الصفة التي أثبتتها الرسالة المحمدية وتجلت في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه/ الآية 05].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام / الآية 18]. وهذا الاستعلاء والجبروت يجعلانه يعلم كل شيء، يعلم ما كان وما هو كائن وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

يقول "زهير بن أبي سلمى"² :

ألا أبلغ الأحلاف عتي رسالةً
وذبيان هل أقسمتم كل مفسم
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم
ليخفي ومهما يكتم الله يعلم

وهناك جانب آخر يضاف إلى إيمان المتألهين بالله، ويدل على معتقدهم فيه، ذلك هو القسم بالله فيما بينهم، ولا يشك أن القسم من الأمور العظيمة عندهم³، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل/ الآية 38].

فيقول "زهير"⁴ :

تعلمن ها لعمر الله ذا قسماً
فأقدر بذرعك وانظر أين تنسلك
ويقول "عبيد بن الأبرص"⁵ :

حلفت بالله إن الله ذو نعم
لمن يشاء وذو عفو وتصفاح

¹ - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص: 29، 34.

² - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 111.

³ - ينظر حبيب الزهراني، أدب الحنيفية في العصر الجاهلي، ص: 235.

⁴ - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 83.

⁵ - عبيد بن الأبرص، الديوان، ص: 42.

يتضح لي جليا مما سبق أنّ الإيمان بالله عند المتألهين بصفة خاصة والجاهليين بصفة عامّة، يقع قبل كلّ إيمان بما سواه، وقد دلّ القرآن الكريم على ذلك في كم من موضع، ويظهر لي أنّ جملة هذه المعارف العقدية التي دارت على السنة المتألهين في أشعارهم نابعة من إيمانهم بالله، وقد شكّلت تمهيدا للبعثة المحمدية والتي أكّدت هذه المعارف وقوّمتها في أصولها السليمة، وفق نظرة الإسلام السديدة.

ثالثا: المتألهون ويوم الحساب:

اختلفت نظرة الشعوب لليوم الآخر، بما في ذلك العرب قبل الإسلام اختلاف معتقداتهم وانتماءاتهم، وقد كان لذلك الأثر البالغ في توجه الشعراء المتألهين، الذين أدلوا بدلائهم في مسألة الحساب وما بعد القيامة من مظاهر، من خلال ما استنقوه من كتب أهل الكتاب أو المتحفين على حدّ سواء.

يقول "زهير"¹:

فلا تَكْتُمَنَّ اللهُ ما في نَفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَم اللهُ يَعْلَمُ
يُؤَخِّرُ فيوَضِعُ في كِتابٍ فَيُدْخِرُ ليومِ الحسابِ أو يُعَجِّلُ فينْتَقِمُ

فيظهر إيمان الشاعر بيوم الحساب جلياً وصريحاً، فمعتقدته أنّه ما من عمل إلاّ ويحفظ في كتاب يدّخر بدوره ليوم يسأل فيه صاحبه، لذلك ليس من الصّواب كتمان ما في النفوس أو ما تعمله الجوارح، لأنّ الله علامّ الغيوب.

وهذا فيه دلالة واضحة على العقيدة الإسلامية في اليوم الآخر، التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلّم، وقد كان هذا بمثابة التمهيد لها والاستبشار بها، وكأنّ الشاعر قد وعى قوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْرَمٰئُهُ طٰئِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ كِتابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ [سورة الإسراء/ الآية 13].

ويثبت "عدي بن زيد" ذلك ويسمّي يوم البعث والحساب بيوم النّشور كما سمّاه القرآن الكريم في كم من موضع ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ دَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [سورة الملك/ الآية 15].

فيقول "عدي"²:

¹ - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 111.

² - عدي بن زيد العبادي، الديوان، ص: 134.

من الإحسان والإكرام فعلا يزان به إلى يوم النشور

ولا يقف عند هذا وحسب بل يتكلم عن الجزاء بعد النشور، نار أم جنة فيقول¹:

أعادل من تكتب له النار يلقيها كفاحا ومن يكتب له الفوز يسعد

أما "أمية" فلكثره حديثه عن العالم الآخر والجنة والنار، فلقد لقبه "الأصمعي" بشاعر الآخرة².

يقول "أمية"³:

ويوم موعدهم أن يحشروا زمرا يوم التغابن إذ لا ينفع الحذر

فالشطر الأول كأنه قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحْتِ أَبْوَابَهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [سورة الزمر/ الآية 71].

والشطر الثاني كأنه قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [سورة التغابن/ الآية 109].

فهذه الحقائق وقف عليها " أمية بن أبي الصلت " في كتب أهل الكتاب، التي كان يقرأها، وبشعره هذا الذي يروى عنه، يوحي بما جاء به الإسلام من إثبات لمظاهر الحشر وأهوال يوم القيامة.

¹ - عدي بن زيد العبادي، الديوان ، ص: 103.

² - سناء أحمد سليم عبد الله، توظيف الموروث الديني في شعر أمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح، فلسطين، 2004، ص: 186.

³ - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص: 39.

وها هو السَّمَوَالُ يُقَرُّ بالحساب وأتته ميت ومن بعد الموت البعث، وهو خائف حينها، هل أعماله له أم عليه، حيث يقول¹:

ليت شعري وأشعرن إذا ما
ألي الفضل أم علي إذا حو
وأتاني اليقين أني إذا مـ
هل أقولن إذ تدارك ذنبي
أفضل من المليك ونُعَمَى
قربوها منشورة ودعيت.
سبت أني على الحساب مقيت*
ت وإن رمم* أعظمي مبعوث***
وتذكبي علي أني نهيت
أم بذنب قدمته فجزيت

وعلى ضوء الأبيات، فحقيقة إحياء العظام وهي رميم مسلم بها لدى الشاعر، مع أن معظم الجاهليين ينكرونها ولا يتقبلونها إطلاقاً هذا كله نابع من إيمان الشاعر بالخالق وإدراكه لمعنى الربوبية، وكان ذلك تجسيد لقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة يس/ الآيتان 78، 79].

" فالسَّمَوَالُ " بهذه العقيدة، كأنه أجاب أسئلة كفار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم عن قضية إحياء الموتى والبعث، فهم يدكون الجزاء؛ سعادة أم شقاوة، فيقول " أمية"²:
يوقف الناس للحساب جميعاً فشقي معذب وسعيد
ويقول كذلك³:

لا تخاطن خبيثات بطيبة
كل امرئ سوف يجزي قرضه حسناً
واخلع ثيابك منها وأنج عزيانا
أو سيئاً ومديناً كالذي دانا

فالجزاء عندهم من جنس عمل المرء، لذلك لا يجب عليه أن يخلط الخير بالشر حتى ينجو ويكون من الفائزين، فمن خلال البيتين يتجسد أمامنا قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [سورة الزلزلة/ الآيتان 7، 8].

¹ - عروة بن الورد والسَّمَوَالُ، الديوانان ، ص: 81، 82.

* - مقيت: مقندر

** - رم: بلي

*** - مبعوت: لغة في مبعوث أي ناهض من الموت.

² - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص: 33.

³ - نفسه، ص: 80.

وهو ميزان المتألهين الذي وافقه الإسلام وأكّده بعد البعثة والذي تعلموه من لُدن الحنيفية النيرة.

حيث يقول "أمية" موقنا بها ومؤمنا بيوم القيامة على حدّ سواء¹:

كَلَّ دِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ دَ اللَّهِ إِلَّا دِينَ الْخَنِيفَةِ زَوْرُ

يتبدى لي ظاهراً من خلال جملة هذه الشواهد المقدّمة، أنّ هؤلاء المتألهين، يصدّقون بالبعث والحساب تصديقا تاماً، وذلك رغم إنكار من حولهم من العرب لهذه العقيدة، التي رسّخها الإسلام وأثبتها بأدلة صريحة وحجج بيّنة، لا تأويل فيها ولا مكابرة في تلقّيها. لذلك تعتبر هذه النظرة من المتألهين توطئة وإرهاصاً لمعارف جاء بها الدين الجديد وأقرّها.

رابعاً: المتألهون وظاهرة التأمل في الكون:

يذكر كلّنا ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلّم قبل البعثة في غار حراء، بإجماع كتب السيرة، حيث كان يتأمل ويتدبّر آيات الكون العظيمة، ويتساءل عن سرّ هذا النظام البديع، ولم يختلف المتألهون قبل الإسلام عن ذلك، فقادتهم عقولهم وفطرتهم للتأمل في مخلوقات الله وإدراك حقيقة أنّ عظمة المخلوق من عظمة الخالق.

يقول "ليبيد"² معترفاً بوحداية الله تعالى بناءً على مخلوقاته التي تشهد بذلك:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَه آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكِهِ وَتَسْكِينِهِ أَبَدًا شَاهِدُ

والأمر ذاته وقف عليه "أمية بن أبي الصلت" من خلال آيتي الليل والنهار، والسرّ وراء

هذا التعاقب، وكيف أنّ الشمس دليل واضح على الربوبية، حيث يقول³:

خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَكَلَّ مَسْتَبِينٌ حِسَابُهُ مَقْدُورُ
ثُمَّ يَجْلُو النَّهَارَ رَبُّ كَرِيمٍ بِمَهَاةٍ شُعَاغُهَا مَنَشُورُ

¹ - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص: 47.

² - ليبيد بن ربيعة العامري، الديوان، ص: 232.

³ - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص: 47.

وهي آيات جلييلة أقسم بها الله تعالى، لإثبات عظمته وجلاله، قال تعالى: ﴿والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسَّماءِ وما بناها﴾ [سورة الشمس/ الآية 05].

ويتأمل " زهير بن أبي سلمى " في عظمة الجبال الرواسي والسماء، مع آية الدهر والتي تذكره كلما نسي بعظمة الربّ، فيقول¹:

ألا لا أرى على الحوادثِ باقياً ولا خالداً إلا الجبالَ الرواسياً
والأسماء والبلاد وربنا وأيامنا معدودة والليالي
أراني إذا ما شئت لاقيت آية تذكرني بعد الذي كنت ناسياً.

وهذا التذكير الناجم عن التدبّر والتأمل نبّه عليه القرآن الكريم ذاته، لأنه منطلق الخشوع وباب الإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَكْبَرُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُتَكَبَرُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة البقرة/ الآية 221].

وقال كذلك: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَآئِرٍ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة القصص/ الآية 43].

وهذه الآيات موعظة لأولي الألباب، الذين لا يجهلون.

يقول " ليبيد "²:

والماء والنيران من آياته فيبين موعظة لمن لم يجهل
بل كل سعيك باطل إلا التقى فإذا انقضى شيء كأن لم يفعل

ولا شك أنّ الحكمة وراءها عظيمة لا يدركها إلا المتدبّر، الذي يعرف الله حق المعرفة ويقدره حق قدره.

¹ - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 142.

² - ليبيد بن ربيعة، الديوان، ص: 126.

يقول " أمية ¹ :

لَم تَخْلُقِ السَّمَاءَ وَالنُّجُومَ وَالشَّمْسُ مَعَهَا قَمَرَ يَفُومُ
قَدْرَهُ الْمَهِيمُنُ الْقَيَّومُ وَ* الْحَشُّ وَالْجَنَّةُ وَالنَّعِيمُ
أَلَا لِأَمْرِ شَأْنُهُ عَظِيمُ

ونرى " قس بن ساعدة " يذكر عدد من آيات الكون، فالزمان ينقلب بين ليل ونهار والسحاب محمّل بالماء يهطل منها إلى الأرض وفي ذلك السحاب وعند هطول الأمطار يرى وميض البرق الذي يكاد يخطف الأبصار، ونسمع زلزلة الرعد التي يخشاها كل من سمعها ويرى في الأرض قصوراً عامرة مشيدة، ومثلها خالية مقفرة، قد كان الناس بها ورحلوا عنها، ويرى الجبال العظيمة ثابتة لا تميد، ثم يشير إلى البحار المتلاطمة بالمياه الغزيرة، والنجوم نراها في الليل المظلم ونهتدي بها في سيرها واتجاهاتها، والشمس والقمر يتعاقبان في حركة دائبة، لا يتأخر كل عن وقته ومنزلته، ثم يذكر الناس من صغير وكبير وأن مصيرهم إلى القبور. كل هذه الآيات وغيرها عند " قس " يهتدي بها ذوو العقول النيرة المتفكرة إلى الإيمان بالله ²، وهذا ذاته مقصد الشريعة الإسلامية من حكمة التأمل والتدبر في آيات الكون.

يقول ³ : " قس بن ساعدة ":

ذَكَرُ الْقَلْبِ مِنْ جَوَاهِ أَدَاكَا
وَسَجَالِ هَوَاطِلِ مَنْ عَمَامِ
ضَوْعِهَا يَطْمَسُ الْعَيُونَ وَأَرْعَا
وَقُصُورِ مَشِيدَةِ حَوَاتِ الْخِي
وَجِبَالِ شَوَامِخِ رَاسِيَاتِ
وَنُجُومِ تَلُوحِ فِي ظِلْمِ اللَّيْلِ
ثُمَّ شَمْسِ يَحْتِثُهَا قَمَرِ اللَّيْلِ
وَصَغِيرِ وَأَشْمَطِ* * * وَكَبِيرِ
وَلِيَالِ خَلَالَهُنَّ نَهَارِ
تُرْنِ مَاءٍ وَفِي جَوَاهِنِ* * نَارِ
دُ شَدَادِ فِي الْخَافِقِينَ تُطَارِ
رِ وَأُخْرَى خَلَّتْ فَهِنَّ قِفَارِ
وَبِحَارِ مِيَاهِهِنَّ غَرَارِ
لِ نَرَاهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارِ
لِ وَكُلِّ مَتَابَعِ مَوَارِ
وَكُلِّهِمْ فِي الصَّعِيدِ يَوْمًا مُرَارِ

¹ - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص: 73.

* - الحش: النخيل المجتمع والجمع حشوش وهي البساتين.

² - ينظر حبيب الزهراني، أدب الحنيفية في العصر الجاهلي، ص: 223.

³ - المرجع نفسه، ص: 224، (نقلا عن ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص: 233، 234).

* * - جواهن: باطنهن وداخلهن.

* * * - الأشمط: يريد كبير قد ابيضت لحيته وعلاه الشيب.

وكثير مما يقصر عنه حدسه الخاطر الذي لا يحار
فالذي قد ذكرت دلّ على اللد له نفوساً لها هدى واعتبار

فإيمان " قس بن ساعدة " قاده للوقوف على هذه الآيات المذهلة ليصل في الأخير إلى حقيقة، هي نفسها وحدانية الله عزّ وجلّ، كما جاء بذلك الإسلام، يقول تعالى: ﴿ تُوْتِي أٰكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة إبراهيم/ الآية 25].

ولا يختلف "عدي بن زيد" عن " قس بن ساعدة " حين ساق جملة عن الآيات تثبت صفة الخلق لله عزّ وجلّ كواحدة من صفات الربوبية في الذات الإلهية العظيمة، والتي وضّحها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بعد البعثة المحمدية، حيث يقول "عدي بن زيد"¹:

اسمع حديثاً كما يوماً تحدّثه عن ظهر غيب إذا ما سائل سألأ
أن كيف أبدى إله الخلق نعمته فينا وعرفنا آياته الأولا
كانت رياحاً وماءً ذا عرانية* وظلمة لم يدع فتقاً ولا خللاً
فأمر الظلمة السوداء فانكشفت وعزل الماء عما كان قد شغلاً
وبسط الأرض ثم قدرها تحت السماء سواءً مثل ما فعلاً
وجعل الشمس مصرًا** لا خفاء به بين النهار وبين الليل قد فصلاً

يظهر لنا جلياً من خلال هذه القطعة الشعرية، كيف أنّ عدياً تكلم عن بداية الخلق، وكيف عرفنا الله عزّ وجلّ آياته الأولى الدالة على قدرته، وصولاً إلى الأرض التي بسطها تحت السماء، والشمس التي جعلها سراجاً يفصل بين الليل والنهار.

وتوضّح هذه الأبيات ثقافة الشاعر الدينية، والتي ربّما كان للنصرانية دور فيها، مرهصاً لجملة من الحقائق، قد ذكرها القرآن الكريم تباعاً.

قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة البقرة/ الآية 29].

¹ - عدي بن زيد، الديوان، ص: 158، 159.

* - العرانية: مدّ السيل .

** - مصرًا: الحاجز بين شيئين .

وقد ورد ذلك في الحديث النبويّ منه قوله صلى الله عليه وسلّم¹: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كلّ شيء» رواه البخاري.

وما يوافق ذلك في خلق السماوات قول " أمية بن أبي الصلت"²:

فأتّم ستاً فاستوت أطباقها وأتى بسابعةٍ فأنسى تودُّ

وقوله في تنظيم هذه الآيات الكبيرة العظيمة³:

إله العالمين وكلّ أرضٍ وربُّ الرّاسيات من الجبال
بناها وابتنى سبعا شداداً بلا عمد يُرِينَ ولا رجال
وسواها وزيتها بنورٍ من الشمس المضيئة والهلال

وهذا ما وافقه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [سورة الرعد/ الآية 02].

والمتألهون وهم في أعق تاملاتهم للكون، أدركوا أنّ عظمة هذا الكون المنظم وراءها مخلوقات من خلق الله تعالى، تسهر على تنظيم شؤون الخلائق وتتقدّ أمر خالقها، فهم جنود الله تعالى في الأرض والسّماء.

يقول " أمية بن أبي الصلت"⁴:

ملائكة أقدامهم تحت عرشه بكفيه لولا الله كلوا وأبدوا
قيام على الأقدام عانين تحته فرائصهم من شدة الخوف ترعد
ويسط صفوف ينظرون قضاءه يصيحون بالأسماع للوحي ركد
أمين لوحي القدس جبريل فيهم وميكال ذو الروح القوي المسدد
وحرّاس أبواب السماوات دونهم قيام عليها بالمقاليد رصّد

¹ - أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تح عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الرشيد، الجزائر، ج13، ص: 447.

² - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص: 28.

³ - نفسه، ص: 61، 62.

⁴ - نفسه، ص: 34.

يصف " أمية " من خلال الأبيات الملائكة بأنهم يحملون العرش، يصطفون بين يدي خالقهم، يفعلون ما يأمرهم به، وسمي منهم جبريل أمين الوحي وميكائيل القوي، ويصف طائفة منهم بأنهم حراس السماء، لذلك فإيمانه بهم واضح لا ريب فيه، وكأني به قد وقف على قوله تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة/ الآية 98].

ويصف " أمية " طاعتهم لله تعالى، مع أنهم أشداء وعظماء، فهم عباد الله المطيعون¹:

يَاذَنَ اللَّهُ فَاشْتَدَّتْ قِوَاهُمْ عَلَىٰ مُلْكِينَ وَهِيَ لَهُمْ وَثَابُ
وَفِيهَا عَن عِبَادِ اللَّهِ قَوْمٌ مَلَائِكُ ذُلُّوا وَهُمْ صِعَابُ

وصفة العبودية في الملائكة أثبتها القرآن الكريم بعد مجيء الإسلام، ونزههم عن أوصاف كانت مغلوطة، نسبها الكفار لهم، حيث قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَّا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [سورة الزخرف/ الآية 19].

ونختم الحديث عن الملائكة بقول " أمية " في ذكره لملائكة السماوات، حيث يقول²:

رَسَلٌ يَجُوبُونَ السَّمَاءَ بِأَمْرِهِ لَا يَنْظُرُونَ ثَوَاءً مِّنْ يَنْقَصِدُ
فَهُمْ كَأُوبِ الرِّيحِ بَيْنَا أَدْبَرَتْ رَجَعَتْ بَوَادِرُ وَجْهَهَا لَا تُكْرَدُ*

يتضح لي مما سبق من شواهد شعرية، أن هؤلاء المتألهين العقلاء الحكماء، قد ساروا على نهج سابقهم من الصالحين، فتأملوا الكون ووصلوا إلى حقائق كونية، كانت مفتاحاً لإيمانهم بالله، وقد كانت هذه الحقائق من بين جملة الدلائل التي وظفها القرآن الكريم، في مختلف الآيات كبراهين حية وحجج دامغة في إثبات ربوبية الله جلّ وعلا وأنه أحقُّ بالعبادة دون غيره من المعبودات الباطلة.

خامساً: المتألهون وأخبار الأولين:

نجد في أشعار المتألهين ذكراً لأخبار أمم سالفة، بما فيهم أنبياء الله تعالى وأقوامهم وما حلّ بهم، ومستندهم فيها كما بينا سابقاً؛ هو بالدرجة الأولى كتب اليهود والنصارى وكلامهم عن أنبيائهم المرسلين وبدرجة أقل ما يروى من أساطير وقصص عن هذه الأمم البائدة،

¹ - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص: 22.

² - نفسه، ص: 30.

* - تُكْرَدُ: تُسَاقُ بِشِدَّةٍ .

وهذا الذكر لم يكن اعتباطاً، بل أنّ أخبار هؤلاء بالنسبة للمتألهين تجلّي قدرة الله عزّ وجلّ في حفظ أنبيائه من جهة ومن جهة أخرى مدى جبروته وبطشه بالقوم الكافرين، وهذا ما يعطي العبرة ويقدم الموعظة لهؤلاء ، والغاية ذاتها كانت في قصص القرآن الكريم، الذي أنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين وذلك من باب الموعظة والاعتبار أو حتى المواصاة لمحمد صلى الله عليه وسلّم لما يؤذى من قبل قومه.

فمن شعر هؤلاء قول " السّمؤال " وهو يشير إلى سعة ملك داود عليه السلام¹:

وأنتني الأنباء عن ملك داو
د ففرت عيني به ورضيت

وهو ما ذكره القرآن تفصيلاً عن قصّة داود:

قال تعالى: ﴿ فَهَرَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة البقرة/ الآية 251].

وهو الملك الذي ورثه سليمان، كما قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ [سورة النمل/ الآية 16].

ويصور لنا " أميّة " قصة أصحاب الفيل، المتواترة عند العرب والتي لا يشكك فيها أحد، مبيّنا قدرة الله عزّ وجلّ وعظمته في حماية بيته الشريف، حيث يقول²:

حَبَسَ الْفِيلَ بِالْمَغَمْسِ* حَتَّى
ظَلَّ يَحْبُو كَأَنَّهُ مَعْقُورُ
حوله من ملوك كندة أبطا
لّ ملاويث في الحروب صقُرُ
خَلَفُوهُ ثُمَّ ابْدَعُوا** جميعاً
كلهم عظم ساقه مكسورُ

وقد أورد الله عزّ وجلّ ذلك في سورة الفيل، قاصداً إياها لرسول الله صلى الله عليه وسلّم مبيّنا قوّته وجبروته، ليتعظ بذلك الناس ويخشوه حقّ الخشية، وهو المقصد ذاته الذي كان يبحث عنه المتألّهون من خلال تطرّقهم لأخبار من قبلهم وما حلّ بهم. قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ

¹ - عروة بن الورد والسؤال، الديوانان ، ص: 82.

² - أميّة بن أبي الصلت، الديوان، ص: 47.

* - المغمس: الموضع الذي ربح فيه الفيل حين جاء به أبرهة ليهدم الكعبة.

** - ابْدَعُوا: تفرّقوا .

كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَزْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (5) ﴿ [سورة الفيل / الآيات من 01 إلى 05].

والغاية ذاتها نجدها عند " زهير بن أبي سلمى" في حديثه عن الصالحين والغابرين في سالف الأزمان مثل هلاك تبّع ولقمان بن عاد، وهلاك ذي القرنين وفرعون، ونجاشي الحبشة وغيرهم، وهو يجعل من هذا وسيلة لتقديم العظة والعبرة لمن نسي ربه وخذعته الدنيا. يقول " زهير" ¹:

ألم تر أنّ الله أهلك تَبَعًا	وأهلك لقمان بن عادٍ وعادياً
وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى	وفرعون جبّاراً طغى والنجاشياً
إذا أعجبتك الدهر حال من امرئ	فدعه وواكل حاله واللياليا
ألا لا أرى ذا إمة* أصبحت به	فَتَتَرَكُهُ الأيَّام وهي كما هي
ألم تر للنعمان كان بنجوة**	من الشرِّ لو أنّ امرأً كان ناجياً
فَغَيَّرَ مِنْهُ مُلْكُ عَشْرِينَ حِجَّةً	من الدهر يومٌ واحد كان غاويًا
فلم أر مسلوباً له مثل ملكه	أقلّ صديقاً باذلاً أو مؤاسياً
فأين الذين كان يعطي جياده	بأرسانهنّ والحسان الغواليا
وأين الذين كان يعطيهم القرى	بغلاتهم والمئيين الغواديا
وأين الذين يحضرون جفانه	إذا قدّمت ألقوا عليها المراسيا

ويورد أُميّة أبياتا، يتحدث فيها عن إبراهيم الخليل، في معرض تقوى الله والامتنال لأمره حتّى ولو كان ابتلاءً، وما قابله من برّ ابنٍ يتهيأ لوالده من أجل أن يذبحه، وذلك امتثال لقضاء الله، دون مناقشة أو اعتراض، فما كان من الله تعالى إلا أن يكرمهما بذبح عظيم يكون سنّة إلى يوم يبعثون.

¹ - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 142، 143.

*- الإمة: النعمة .

**- التّجوة: المرتفع من الأرض .

يقول " أمية " ¹:

ولإبراهيم الموفى بالند	ر احتساباً وحامل الأجدال *
بكره لـم يكن ليصبر عنه	لو رآه في معشر أقتال
أبني إني نذرتك للـ	ه شحيطا * * فاصبر فذلك حالي
فأجاب الغلام أن قال فوه	كل شيء لله غير انتحال
أبتي إني جزيتك بالـ	ه تقياً به على كل حال
فاقض ما قد نذرت لله واكفف	عن دمي أن يمسه سـربالي
بينما يخلع السراويل عنه	فكّه ربّه بكبس حلال

وسرد هذه القصة بهذه العبر، ربّما كان إشارة أو إرهاصاً لأمر قادم، سيمجّد هذه العبر ومكارم الأخلاق ويحييها ويحثّ عليها اقتداءً بهؤلاء الذين عرفوا معنى الطاعة والإيمان، وهذا ما نلمسه في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (102) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادِيَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (105) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (107) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (108) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (109) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (110) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (111) ﴾ [سورة الصافات/ الآيات من 102 إلى 111]، ففيها من دروس الطاعة والتقوى ولذة الإيمان ما فيها.

وأورد لنا صاحب كتاب الشعراء الخفاء أبياتاً " لزيد بن عمرو بن نفيل" الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم أنه يُبْعَثُ أُمَّةً، يتحدث فيها عن قصة موسى عليه السلام وأخيه هارون، والتي ينتهي من خلالها إلى إثبات وجود الله ووحدانيتها وهو لبُّ عقيدته الحنيفية والتي تتقاطع مع الإسلام في مبادئ، كما بيّن ذلك القرآن الكريم ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة آل عمران/ الآية 67].

¹ - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص: 63.

* - الأجدال مفردها جذل وهو ما عظم من أصول الشجر المقطع .

** - شحيطا: ذبيحا .

حيث يقول " زيد بن عمرو " مناجيا ربّه¹:

وأنت الذي من فضل منّ ورحمة	بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له اذهب وهارون فادعوا	إلى الله فرعون الذي كان طاغيا
وقولا له أنت سويت هذه	بلا وتد حتى اطمأنت كما هيا
وقولا له أنت رفعت هذه	بلا عمد أرفق إذا بك بانيا
وقولا له أنت سويت وسطها	منيرا إذا ما جنه اللّيل هاديا
وقولا له من يرسل الشمس غدوة	فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا.

فهذه القصّة يوردها " زيد " في شعره، لزيادة المواعظ والعبر ولفت الانتباه لوحداية الله تعالى، وذلك من خلال أخبار هؤلاء الصّالحين الذين بلّغوا رسالات الله جلّ وعلا، في أزمان مضت، وهذه من الحكم التي سعى إليها القرآن بعد البعثة، من خلال ذكر قصص هؤلاء في كم من موضوع في ثنايا سوره وآياته المتعدّدة، من أجل إثبات الربوبية والألوهية لله الخالق الواحد الأحد، الذي يرسل رسله لعباده، لتحقيق العبودية والدعوة إلى التوحيد، وهو ما جاء به الإسلام على فترة من الرّسل.

وليس ببعيد عن أخبار السّالفين في شعر المتألهين؛ قول " لبيد بن ربيعة " في أخريات الجاهلية، وهو في معرض التأسّف والحسرة، موقنا بقضاء الله وحتمية الفناء والأوبة لله، مستدلاً بما حلّ بإرم ذات العماد وثمرود رغم ما عرفوا به من قوّة وجبروت، حيث يقول²:

قضي الأمور وأنجز الموعود	والله ربي ماجد محمود
ولقد بلت إرمّ وعاد كيده	ولقد بلتّه بعد ذلك ثمود
خلّو ثيابهم على عوراتهم	فهم بأفنية البيوت همود
ولقد سئمت من الحياة وطولها	وسؤال هذا الناس كيف لبيد

فهؤلاء القوم عرفوا بالقوّة والعظمة، ولكنّ الدّهر يفني، والبقاء والدوام لله وهو الأحقّ بالحمد والعبودية، وهذا ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلّم.

¹ - أحمد جمال العمري، الشعراء الحنفاء، ص: 180، (نقلًا عن الأوسى، بلوغ الأرب، ج02، ص: 250).

² - لبيد بن ربيعة، الديوان، ص: 46.

يتّضح لي جلياً مما سبق عرضه من الشواهد الشعرية، أنّ الشعراء المتألهين تطرّقوا في أشعارهم لأنبياء الله ورسله والسّابقين الأوّلين، وهذا يعدّ جانباً مهمّاً من جوانب العقيدة في شعرهم، وقد كان ذلك لمقاصد متعدّدة لعلّ أبرزها الموعظة وأخذ العبرة، وصولاً لحقيقة وحدانيّة الله عزّ وجلّ وعظّمته، في ضوء ما حلّ بهؤلاء الأقبام، ولعلّ ذكرهم لمختلف هذه الأخبار في أخريات الجاهلية، كان بمثابة الإرهاص للتغيير المعرفي الذي سيحلّ بجزيرة العرب خصوصاً والبشرية على وجه العموم.

سادسا: المتألهون ونظرتهم للقضاء والقدر:

من أبرز الموضوعات التي شغلت الجاهليين بصفة عامة والمتألهين على وجه الخصوص؛ موضوع القضاء والقدر.

فقد كان بين أهل الجاهلية من كان يقول بالجبر، وبأنّ الإنسان مسير لا مخير.

ولا يعني القول بالجبر أنّ قائله من المتألهين القائلين بوجود خالق أوجد الكون، فقد كان من المجبرة من كان ملحدًا، ولا يقول بخالق، وكان منهم من كان مشركًا، كما أنّ بينهم من كان يؤمن بوجود خالق أو جملة آلهة فليس لمذهب الجبر علاقة بالخالق، وإنّما هو مذهب يرى أنّ الإنسان مسير وأنّه يسير وفق ما كتب له، ومنهم من ينسبه إلى علة، وهي الله أو الدهر، ومنهم من لا ينسبه إلى أحد وهو مذهب موجود في اليهودية وفي النصرانية وفي الإسلام، و(القدر) و (المقدّر) و (المقدور) و(الأقدار) و(القضاء)، من الألفاظ القديمة التي استعملها المتألهون والتي كانت تؤدي هذا المعنى الذي نبحت فيه قبل الإسلام، واستعمال المتكلمين للقضاء والقدر وللقدريّة، لا يعني أنّ تلك الكلمات من الألفاظ التي نبعت في الإسلام، بل إنّ ظهورها في هذا العهد و اشتهاها فيه، هو لاستخدام العلماء لها في مدلولات معيّنة وفي مصطلحات وأفكار توسّعت واستقرت في هذا العهد¹.

ومن المتألهين القائلين بالقضاء والقدر " حاتم الطائي"، الذي يثبت أنّ وراء السعي أجل مقضي، لا بدّ منه، لا نتأخّر عنه ولا نتقدّم، وهو مدرّكنا شئنا أم أبينا، فيقول²:

يسعى الفتى وحمّام* الموت يدركه وكل يوم يدنى للفتى الأجل
إنّي لأعلم أنّي سوف يدركني يومي وأصبح عن دنياي مشتغلا

¹ - ينظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج06 ص: 153، 154.

² - حاتم الطائي، الديوان، تح أحمد رشاد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1986، ص: 39.

*- الحمّام: قضاء الموت وقدره، يقال حمّ أجله أي قضي وقدر.

فحتمية الأجل وميقاته المحدد داخل ضمن قضاء الله وقدره الذي قدره تعالى وأمر به، كما تتضح رؤياه أكثر لهذه المسألة عندما يأمر قومهم بتفويض أمرهم للإله الذي يرزقهم اليوم وغداً، فيعني هذا على قوله. أن الرزق مسطر ومحدد والإنسان ميسر لما خلق له، فيقول¹:

كلوا اليوم من رزق الإله وأيسرُوا فإنّ على الرحمن رزقكم غداً

وكأن في الأبيات الشعرية معنى، يوافق المعنى الذي جاء به القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة التكوير/ الآية 29].
والعقيدة ذاتها عند " زهير بن أبي سلمى " إذ يقول أنه لا مفر من الموت، ولو بالارتقاء والصعود إلى السماء، وذلك حسب قدر محتوم، فمن شاء له الله عز وجل أن يعمر، يكن له ذلك، ومن شاء له أن يموت، يكن له ذلك فيقول²:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ثمته ومن تخطى يعمر فيهم³
ومن هاب أسباب المنايا يتأنه وإن يرق أسباب السماء بسلم

وإن هذا القدر عند " زهير " لا يعلمه إلا الله تعالى، فنحن لا نقف عليه ولا نعلمه إلا بعد حدوثه، وبعد أن يكون في طبيّاته لزمن الماضي. فيقول:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم⁴

مصدقا لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [سورة النمل/ الآية 65].

¹ - حاتم الطائي، الديوان، ص: 18.

² - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 114.

³ - يشبه الموت بالنّاقة العمياء التي تتخبط على غير هدى، فمن أصابته مات، ومن لم تصبه بقي حياً، فالأمر لا يتعلّق بشباب أو هرم.

⁴ - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 114.

ونجد " عبيد بن الأبرص " في مواضع متعدّدة من شعره، يتحدّث عمّا تأتي به الأقدار فهو يصبر وينصح بالصبر في ملاقاته شدائدها وأحزانها، وعدم الجزع لأحداث القدر، فإنّ الموت مدرك كلّ ما تلد الوالدة، إذ يقول¹:

أوصي بني وأعمامهم بأن المنايا لهم راصده
لها مدة فنفس العباد إليها وإن كرهت قاصده
فوالله إن عشت ما سرني وإن مت ما كانت العائده

فالشاعر بهذا مؤمن بالقضاء والقدر، وأنّ الموت من قضاء الله تعالى وقدره، فلا نجزع منه مهما دنا لأنّه النهاية الحتمية لكل كائن على وجه الأرض، فبقوله " إليها وإن كرهوا قاصده " نستحضر معنى الآية الجليلة ﴿ كَلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [سورة آل عمران/ الآية 185].

وهذه الرؤية مخالفة لمنظور أغلب الجاهليين، الذين أنكروا قضاء الله وقدره وحسن تدبيره للكون، وهم ذاتهم الذين حكى القرآن قولهم في زعمهم هذا، حيث قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [سورة الجاثية/ الآية 24].

فعند المتألهين، بالله يدرك كل شيء، وهو المدبّر، لا شريك له علامّ الغيوب، يقول "عبيد بن الأبرص"²:

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وسائلُ الله لا يخيبُ
بالله يُدْرِكُ كُلَّ خَيْرٍ والقولُ في بعضه تلغيبُ
الله ليس له شريكٌ علامّ ما أخفت القلوبُ

وفي هذا إثبات لقضية القضاء والقدر، والذي هو بمثابة علم الله عزّ وجلّ الأزلي الأبدي بأحوال الخلاق، وهو الذي يمكنها من إدراك ما قدره لها.

¹ - عبيد بن الأبرص، الديوان، ص: 49.

² - نفسه، ص: 22، 23.

فاعتقاد هؤلاء المتألهين في القضاء والقدر، بالدرجة الأولى هو اعتقاد في قدرة الله تعالى، وأن كل شيء في الكون يسير وفق إرادته، والذي يصيب المخلوق لا بدّ أنه يكون قد كتبه خالقه له، وهذا ما أقرّه الإسلام من بعد البعثة.

وما يُجَلِّي الصورة أكثر، قول "لبيد"، عندما أسند رزق العبد أو حرمانه لله تعالى، فهو من يرزق ومن يحرم، وفق ما قدره وجعله مقضياً، ولا يصحّ بأي حالٍ من الأحوال أن نعترض على هذا القدر، فيقول "لبيد"¹:

مَا رُزِقْتَ فَإِنَّ اللَّهَ جَالِبُهُ وَمَا حُرِمْتَ فَمَا يَجْرِي بِهِ الْقَدْرُ.

ويقول كذلك²:

وَلَا أَقُولُ إِذَا مَا أْزَمَةَ أَزَمْتُ يَا وَيْحَ نَفْسِي مِمَّا أَحَدَثَ الْقَدْرُ.

فشطر البيت الأوّل يتقاطع معنى مع قوله جلّ وعلا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [سورة الذّاريات/ الآية 58].

ومع إثبات هذه الصفة لله جلّ في علاه، يدرك الشاعر جيّداً أنّ كلّ ما يصيبه وما لم يصبه، هو من تقدير الله تعالى له، سواء خيراً أم شراً، وهو المعنى ذاته في الآية الفاضلة: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة التوبة/ الآية 51].

« وقد عبّر هؤلاء الشعراء وغيرهم عن القضاء والقدر، بكلمات لم تجد لها في الإسلام - فيما بعد - المكانة التي كانت لها في الجاهلية، وقلّ استعمال بعضها بظهور مصطلحات جديدة نبتت بعد ذلك في الإسلام، من هذه الكلمات التي عبّروا بها؛ (الدّهر والحمام والمنايا، الحتف والآجال، والمحتوف، والمنون، والمنية وقضاء والموت، وما حُمّ واقع، وحمام الموت، والقدر والمقدور، والزمان والأيّام)³»

وذلك بديهي لأنّ الإسلام جاء لتقويم المعارف، وتسديدها وتوضيح أطرها السليمة.

¹ - لبيد بن ربيعة، الديوان، ص: 233.

² - نفسه، ص: 57.

³ - أحمد جمال العمري، الشعراء الحنفاء، ص: 175.

ونظرة المتألهين للقضاء والقدر، تسوقهم حتما للكلام على نهاية هذه المقادير، فانتبهوا وفق ما تمليه ضمائرهم الحيّة إلى الموت والفناء، وربطوا ذلك بقدره الله تعالى وخلوده، متيقّنين أنّ لكل بداية نهاية، وهذا يثبت أنّ وقائع الكون منظّمة.

فهذا " أمية " يُقرُّ بالفناء والموت، ولا يبقى سوى وجه ربّنا جلّ في علاه، إذ يقول¹:

فكلّ معمر لا بُدَّ يَوْمًا وذي دنيا يصير إلى زوال
ويفنى بعد جدّته ويبلى سوى الباقي المقدّس ذي الجلال

ويقول كذلك في السّياق نفسه²:

كلّ عيشٍ وإن تطاول دهرًا منتهى أمره إلى أن يزولا
فاجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر إنّ للدهر غولا*

وينسب الخلود لله عزّ وجلّ وأنّه الوارث دون سواه فيقول³:

ألا كل شيءٍ هالكٍ إلا ربنا والله ميراث الذي كان فانيا
وليّ له من دون كلّ ولاية إذا شاء لم يمسا جميعاً مواليا
ولن يك شيءٌ خالدًا ومعمراً تأمل تجد من فوقه الله باقيا

وهذا ما أقرّته الشريعة الإسلامية وأثبتته، ودليله قول عزّ وجلّ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا

فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27)﴾ [سورة الرحمن/ الآيتين 26، 27].

والحقيقة ذاتها أشار إليها " عبید بن البرص " في قوله⁴:

ما تبتغي من بعد هذا عيشة إلا الخلود ولن تنال خلودا
وليفنّين هذا وذاك كلاهما إلا الإله ووجهه المعبودا

1 - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص: 57.

2 - نفسه، ص: 62.

* - الغول: الهالك، المنية.

3 - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص: 88.

4 - عبید بن الأبرص، الديوان، ص: 49.

ولا شكَّ أنّه من بعد الفناء، يأتي الحساب وتعلم كلّ نفس ما قدّمت في سعيها، يقول
" لبيد " ¹:

وكلّ امرئ يوماً سيعلم سعيه إذا كشفت عند الإله المحاصل

وفي الشواهد التي قدّمتها في عنصر الحساب والعقاب عند المتألهين خير دليل على ما
نقول.

يتضح لي مما أسلف ذكره، أنّ للمتألهين نظرة للقضاء والقدر، تختلف في أصلها عمّا
يراه غيرهم من الجاهليين، وأنهم بهذا التوجه العاقل الحكيم في أخريات الجاهلية أَرهصوا
للإسلام وأركانها الفاضلة، التي يقوم عليها ومن بينها الإيمان بقضاء الله وقدره النافذ، الذي
لا ردّ له، كما أنهم أدركوا قدرة الله تعالى وعظمته، وهذا الذي ساقهم للوصول لمثل هذه
المعارف والحقائق التي تتنازع فيها الناس زمناً طويلاً.

سابعاً: قيم سعى إليها المتألهون:

لاحظنا من خلال ما أوردناه من شعر لهؤلاء المتألهين، أنّ أغلب مضامينهم تسير
عكس التيار الجاهلي، ففاضت قرائحهم بمعانٍ سامية، ومضامين جليّة ومثل عليا، تُعبّر
عن قيم ناشدها هؤلاء وسعوا إلى تحقيقها، انطلاقاً من توجّههم الديني، والأصالة العربية
التي تحلّت بمكارم وفضائل، أشاد بها أعداؤها قبل أحبائها، لعلّ أبرز هذه القيم والأخلاق:

1- الدّعوة إلى السّلم والأمن والصّح:

مما عُرف عن المجتمع الجاهلي - كما أسلفنا الذكر في الأوضاع الاجتماعية - أنّه
مجتمع غزو وحرب وثأر، فالحروب والثأر يسريان في دماء العرب الجاهليين، وذلك حسب
ما أملت الظروف المحيطة بهم، ولكنّ كل هذا لم يثني من عزم العقلاء والحكماء في رفض
هذه العادات الذميمة، وسعى المتألهون بدورهم إلى الدّعوة إلى السّلم والصّح، وإرساء نعمة
الأمن مثلما أقرّ الإسلام ذلك وأكدّ عليه.

¹ - لبيد بن ربيعة، الديوان، ص: 132.

فهذا " زهير " يذمّ الحرب، وينذر من سوء عاقبة إيقادها، لأنّها سُرْعَان ما تمتدّ وتكبر
مثنيا بذلك على المسالمة والمصالحة، فيقول¹:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرّجّم *
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضرّ * * * إذا ضرّ يتموها فتضرّم
فتعركك عرك الرّحى بثفالها * * *
فتغلّل لكم ما لا تغلّل لأهلها
وتلقح * * * * كشافاً ثم تنتج فتنتم
قري بالعراق من قفيزٍ ودرهم²

" فزهير " بنظرته هذه المخالفة للعرف العربي الجاهلي، يصوّر الحرب في أشع صورة،
وبرعب كبير، ويكفي أنّه شبّهها بالرّحى التي تطحنُ النَّاس، ولا غاية له من وراء ذلك إلاّ
ذمّها وإفشاء السّلم بين النَّاس، في جوّ تسوده المحبّة والخير.

وممّا يؤكّد موقفه، وميله للصّح والسّلم، مدّحه " لهرم بن سنان " و " الحارث بن عوف "
وذلك لإتمامهما الصّح بين عبس وذبيان، وتحملهما لديات القتلى³، فيقول⁴:

تداركتما عبساً وذبيان بعدما
تفانوا ودقوا عطر منشم
وقد قلتما إن ندرك السّلم واسعاً
بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطنٍ
بعيدين فيها من عقوق ومأثم

فالرّجلان عند " زهير " من أنبل النَّاس، لأنّهما سعيا إلى الخير وإيقاف الحرب والعدوان
والقضاء على القطيعة، وهذا المبدأ العظيم عند الشاعر، قد حتّ عليه الإسلام ذاته وأكّد
عليه وأقرّه كقاعدة لها وزنها في حياة الأمم.

قال تعالى: ﴿إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
[سورة الأنفال/ الآية 61].

¹ - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 111، 112.

* - المرّجّم: المظنون.

** - تضرّ: يزداد اشتعالها.

*** - الثفال: جلدة تحت الرّحى، يقع الدقيق عليها.

**** - لقحت الناقة كشافاً: إذا حمل عليها في إثر نتاجها، والمعنى تفضيع أمر الحرب وعاقبتها.

² - الشاعر يتهمك إشارة منه إلى سوء مآل الحرب وشدة أذاها وحتّ على الصلح وإخماد لظاها.

³ - ينظر الزوزني، شرح المعلمات السبع، ص: 100.

⁴ - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 110.

ولنا في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم خير دليل على ذلك، فموقفه من أسرى بدر وفتح مكة والسيوف في أغمادها مع قدرته على الكافرين، يكفيان لتحديد معنى السلم في الإسلام.

2- الدعوة لصلة الرّحم والإحسان لذي القربى:

نجد في أشعار المتألهين إشارات لضرورة الإحسان للأرحام والمحافظة عليها، وعدم قطعها.

يقول "أبو قيس صرمة"¹:

يا بني الأرحام لا تقطعوها	وصلوها قصيرة من طوال
واتقوا الله في ضعاف اليتامى	ربما يُستحلّ غير الحلال
واعلموا أنّ لليتيم ولياً	عالماً يهتدي بغير السؤال
ثمّ مال اليتيم لا تأكلوه	إنّ مال اليتيم يرعاه والي

فدعوة الشاعر صريحة، لا تحتاج إلى تأويل، فهو يحثّ على عدم قطع صلة الرّحم، وضرورة الإحسان لليتيم وإيفاء حقّه وعدم التعديّ على ماله، لأنّ ماله محفوظ من الله عزّ وجلّ، والشاعر ينادي بهذا في وقت ثارت فيه حروب طاحنة بين أبناء العمومة عند العرب الجاهليين.

وليس ببعيد عن هذا قول "زهير"، عندما عدّد جملة من المكارم، وأدرج من بينها عدم منع ذي القربى وذي الرّحم، وتجنّب الإساءة إليهما فيقول²:

إنّ تلقى يوماً على علاته هراماً	تلقّ السّماحة منه، والندى خُلُقاً
وليس مانع ذي قربي، وذي رحم	يوماً ولا مُعدماً من خابط ورقاً

ألا يعدّ هذا إرهاصاً لما جاء به الإسلام في الأمر بصلة الأرحام والإحسان لذي القربى والقياسي؛ قال تعالى: ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال/ الآية 75].

وجاء في الحديث: « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَنْتَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ »³.

¹ - ابن هشام، السيرة النبوية، تح مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط01، 1995، ج02، ص: 139.

² - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 72.

³ - ابن حجر العسقلاني، شرح صحيح البخاري، ج10، ص: 472.

وقال تعالى في حقّ ذي القربى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل/ الآية 90].
وقال تعالى في حقّ اليتيم: ﴿ وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ [سورة النساء/ الآية 02].

فهؤلاء الشعراء المتألهون العفلاء، أدركوا بفطرتهم السليمة ضرورة هذه المبادئ، التي أكدها الدين الإسلامي وأقرّها وحثّ على ضروريّتها وثوابها.

3- دعوة المتألهين للتحليّ بالوفاء والصدق:

عرفت العرب بجملة من المكارم، ميّزتها عن غيرها من الأمم، ولعلّ هذا من أبرز الدواعي لاختيارهم من أجل حمل راية الإسلام ونشرها، وفي المقابل شاعت فيهم أخلاق ذميمة كانت السبب لقدم مطهر ومرشد فيهم، من أبرزها الغدر والكذب، وفي مقابل هذا، دعا المتألهون إلى الوفاء والصدق، وعرفوا بذلك، وجعلوهما من مبادئهم التي لا يحدون عنها. وكلّما ذكر الوفاء، ذكر " السّمؤال " الذي آثر قتل ابنه على أن يسلمّ الدروع والأسلحة " للحارث بن أبي شمّر الغساني"، والتي قد استودعها عنده " امرؤ القيس"، في رحلة تأره من قاتل أبيه، إذ يقول " السّمؤال " ¹:

بنى لي عاديًا حصناً حصيناً	وعيناً كلّما شئت استقيت
طمرًا* تزلق العقبان عنه	إذا ما نابني ضميم أبيت
وأوصى عاديًا قدما بأن لا	تهدم يا سمؤال ما بنيت
وفيت بأدرع الكنديّ إني	إذا ما خان أقوام وفيت
وقالوا إنه كنز رغيّب	فلا والله أعدر ما مشيت

فقيمة الوفاء وصدق العهد، جليّة في أبيات الشاعر، وهي عنده مكرمة نشأ عليها، وترتّى فيها، وهذا من بين ما جاء به الإسلام وأمر به لأنّ المُستأمن مسؤول، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [سورة الإسراء/ الآية 34].

ويوافق المبدأ نفسه، شاعر الحكمة عدي بن زيد، حين ينفي عن نفسه صفة الخيانة، حتى وإن خانته الآخرون، لأنّ ذلك ليس من أخلاقه وشيمه.

¹ - عروة بن الورد والسؤال، الديوانان ، ص: 79، 80.

*- الطمر: هو المشرف، وهو هنا نعت للحصن.

يقول " عدي بن زيد"¹:

وما بدأتُ خليلي أخا ثقة بريبةٍ ولا ربَّ الحِلِّ والحرمِ
يأبى لي الله خونَ الأصفياءِ وإنْ خانوا ودادي لأنِّي حاجزي كرمي

ويأمر " زهير بن أبي سلمى" بالصدق ويدعو الله، لأنَّ فيه منجاةً من الشرِّ ورفعته في القوم ولأته من صفات الشَّهامة والمروءة، إذ يقول²:

وفي الحلم إدهانٌ، وفي العفو دُرْبَةٌ وفي الصّدق منجاةٌ من الشرِّ فأصدُقْ

وقد جعل الإسلام الصّدق من أبواب التقوى، وأمر به وحدّد جزاء الصادقين ومرتبتهم يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [سورة التوبة/ الآية 119].

وقال كذلك: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [سورة النساء/ الآية 69].

وعليه فقد وجدت هذه الإشارات والمبادئ في الصدق والوفاء، صداها في الإسلام، وكأنَّ هؤلاء المتألهين أحسّوا وأيقنوا بقدوم من سيتمنُّ هذه المكارم ويحثُّ عليها لأنها تزيّن المرءَ مهما كان انتماؤه.

4- دعوة المتألهين إلى حسن الجيرة والتعفّف:

العِزُّ عند العربي من المقدّسات، التي لا يرضى بمساسها والإساءة إليها، فكيف إذا تعلّق الأمر بالجار، ولكنّ الجاهلية أملت على العرب عادات ما ألفوها، خاصة في أخرياتها، فانتشرت الفاحشة والتعدّي على حقوق الغير من جيران وغيرهم، ومع هذا أنكرت طائفة المتألهين هذه العادات الخسيصة، من خلال ما وجدوه في الحنيفية الإبراهيمية.

"فحاتم الطائي" يستعيز بالله من فضح جارته تَعَفُّفاً منه، ويرتفع عن خيانة جاره، تکرماً منه وإحساناً له ، فيقول³:

إذا ما بتُ أختلُّ عُرْسَ جاري ليُخْفِينِي الظلامُ فلا خُفِيْتُ
أفضح جارتي وأخون جاري معاذ الله أفعل ما حُبِيْتُ

¹ - عدي بن زيد، الديوان، ص:171.

² - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 77.

³ - حاتم الطائي، الديوان، ص:10.

وهذا العمل النبيل دعا إليه الإسلام، بل وجعله من أكد حقوق الغير علينا، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [سورة النساء/ الآية 36]، ولنا في سيرة المصطفى مع جيرانه خير مثال.

وتتجلى صورة العفة بمفهومها الرّاقى، عند حاتم الطائي عندما يَغضُّ طرفه عن جاراته ويمسك سمعه عنهن، وذلك وفق ما تمليه عليه أنفته، ومبادئه السّامية التي لا يحيد عنها إذ يقول¹:

بعيني عن جارات قومي غفلة وفي السّمع مني عن حديثهن وقُر.

ألم يحثّ الإسلام على هذا؟ وأتمه، وجعله من مكارم الأخلاق، وحدود الشرع، يقول تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [سورة النور/ الآية 30].

5- دعوة المتألهين إلى التّعفّف عن كثرة التّسأل وسفاهة القول:

من أنبل ما دعا إليه هؤلاء الشعراء؛ التّرقّع عن الحاجة لغيرهم والتّماذي في ذلك، لأنّه يُذلّ النّفس ويخرم المروءة. ومن أكثر التّسأل سيحرم ذات يومٍ ويردّ ويُحرج، يقول "زهير"²:

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التّسأل يوماً سيُحرم

وهذا الفعل ذمّه الإسلام كذلك، وبين أنّ اليد العليا خير من اليد السفلى؛ يد تعمل وتكدّ خير من يدٍ تطلب وتحتاج ولا تكفي صاحبها ذلّ السّؤال.

فهؤلاء المتألهون يعفون أنفسهم ويسترونها، ولو كانوا في أمسّ الحاجة لغيرهم، يقول "عبيد بن الأبرص"³:

لعمرك إنّني لأعفّ نفسي وأسترّ بالتكرم من خصاص

وأكرم والدي وأصون عرضي وأكره أن أعدّ من الحراص*

¹ - حاتم الطائي، الديوان، ص: 24.

² - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 116.

³ - عبيد بن الأبرص، الديوان، ص: 74.

* - الحراص: مفرد حريص: البخيل

فهذه القيم زكّاهها القرآن ومدح بها هؤلاء المتعفّين، فيقول تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا﴾ [سورة البقرة/ الآية 273].

ومما دعا إليه هؤلاء كذلك، الترفع عن سفاهة القول والسب والشتم لأن ذلك منقصة في المرء. يقول "زهير"¹:

وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ يَفْرَهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِي الشَّتْمَ يُشْتَمُ

ويقول كذلك²:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدّم

وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

والكلام الطيب من قيم الإسلام وأخلاقه، فهو يزيد من مروءة المرء عليه جزاء عظيم

قال تعالى ﴿إِنِّي يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [سورة فاطر/ الآية 10].

6- نهي المتألهين عن شرب الخمر وأكل الميتة:

من الأمور التي عافها الحنفاء أيضاً، ودعوا مجتمعهم إلى نبذها واجتنابها "الخمر". وقد أورد أهل الأخبار - أن تأثير الحنفاء في هذا الجانب، كان قوياً في مجتمعهم مما جعل السادة والأشراف يرفضون تعاطيها، ومنهم من حرّمها على نفسه وعلى أهله، وفي ذلك يقول "قيس بن عاصم"³:

رأيت الخمر مُصْلِحَةً وفيها خصال تفسد الرّجل الكريما

فلا والله أشربها حيايتي ولا أدعو أبداً لها نديماً

فإن الخمر تفضح شاربها ولا تجنيهم بها الأمر العظيم

إذا دارت حمياها تعلت طوالعُ تسفّه المرء الحليما

ويقول "أمية بن أبي الصلت" طالبا المغفرة على جرم شرب الخمر⁴:

فاغفر لعبدٍ إنَّ أوّل ذنبه شربٌ وإيسار يشاركها ددٌ*

¹ - زهير بن أبي سلمى، الديوان، ص: 114.

² - نفسه، ص: 115.

³ - ينظر أحمد جمال العمري، الشعراء الحنفاء، ص: 193.

⁴ - أمية بن أبي الصلت، الديوان، ص: 31.

* - الدد: اللهو واللعب.

وقد حرّم الإسلام الخمر لما فيها من أضرار، وخوارم للمروءة.
قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ
مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [سورة البقرة/ الآية 219].

ومن المبادئ التي استقاها المتألهون من تحنّفهم؛ تحريم أكل الميتة.
يقول " حارثة بن أوس الكلبي"¹:

لا آكل الميتة ما عمّرت نفسي وأن أبرح إملاقي
والعقر لا انفصّ منه القوي حتى يوارى القبر أطباقي

وأكل الميتة ممّا حرّمه الإسلام وذمّه، كعادة قبيحة من عادات الجاهليين.
قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ [سورة
البقرة/ الآية 173].

يتّضح لي ممّا سبق جلياً، أنّ المتألهين قُبيل الإسلام، بحثوا عن القيم السّامية، والمبادئ
العظيمة، والدّين الصّادق، وتحلّوا بذلك وظلّوا يدعون له، وبه بدأ الإرهاص للتحوّل الديني
الذي تمّ هذه المبادئ، وأجاب عن جملة التساؤلات التي لطالما كان يطرحها المتألهون في
رحلة بحثهم عن الحقيقة.

¹ - أحمد جمال العمري، الشعراء الحنفاء، ص: 192. وينظر كذلك، عماد الصبّاح، الأحناف، ص: 59.

الخطبة

الخاتمة

تَبَدَّتْ لي جليًا ممّا تمّ عرضه جملة من النتائج أبرزها:

- إنّ للعرب ضروبهم الخاصّة من التفكير في الحقائق التي كانوا يعيشونها في مجتمعاتهم، ولهم حكمهم المستوحاة من مختلف التجارب والمعطيات المحيطة بهم، وذلك ليس تنطُّعًا ولا فلسفة، بل هو وليد الفطرة والبساطة.

- العقل العربي لا يقلّ قيمة عن غيره من عقول أصحاب الحضارات العظمى، ويكفيه ارتقاء إدراكه لحقيقة الخالق جلّ وعلا، وأنّضح ذلك في كلام هؤلاء المتألّهين وإيحاءاتهم التي أيقظتها فطرتهم السليمة.

- العصبية القبلية والنّار والطبقية وغيرها من الظواهر الاجتماعية الجاهليّة كانت كفيلة بإثارة حفيظة المتألّهين واستنكارهم لها.

- الحنيفيّة الإبراهيميّة كانت ملاذًا لهؤلاء المتألّهين، ومنبعا لجملة من المعارف والأفكار التي جسّدوها في أشعارهم.

- تميّز شعر المتألّهين بجملة من الموضوعات العقديّة، جعلته مختلفا عن غيره من جملة أشعار الجاهليّين، لعلّ أبرزها؛ الإيمان بالبعث والحساب والملائكة وكذا الإيمان بالقضاء والقدر.

- تفاؤل المتألّهين بقدم النبيّ في أشعارهم كان إرهابًا للبعثة المحمديّة.

- دعوة المتألّهين في أشعارهم للإيمان بالله وتوحيده وفق مبادئ الحنيفيّة الإبراهيمية، كان إرهابًا في حدّ ذاته للدين الجديد الذي أكّد ذلك ودعا إليه.

- دعا المتألّهون في أشعارهم لقيم جليّة، كانت فيما بعد عناوين بارزة في الرّسالة المحمديّة أبرزها: السّلم والصلح، صلة الرّحم والإحسان للأقربين، التّحلي بالوفاء والصدّق، حسن الجيرة والتّعفّف.

- حمل شعر المتألّهين في طيّاته إرهابات عديدة، كانت تمهيدا لتغيير معرفيّ وقيميّ للواقع العربيّ الجاهليّ .

- ألهم المتألّهون بمعارف وقيم كانت عناوين بارزة في الرّسالة المحمديّة بعد البعثة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم .

1. ابن منظور، لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، دط، 2013، مادة: "رهص"، ج4.
2. ابن هشام، السيرة النبوية، تح مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط01، 1995، ج02.
3. أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي، الأصمعيات، تح عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، دط، دت.
4. أبو عبد الله الحسين الرّوزني، شرح المعلفات السّبع، بيت الحكمة، الجزائر، ط02، 2013.
5. أبو علي الحسن بن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 2001، ج1.
6. أحمد بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تح عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الرشيد، الجزائر، دط، دت، ج13.
7. أحمد جمال العمري، الشعراء الحنفاء، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1981.
8. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، ط2، 1993، ج06.
9. حاتم الطائي، الديوان، تح أحمد رشاد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1986.
10. حبيب الزّهراني، أدب الحنيفية في العصر الجاهلي، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية وآدابها، جامعة أم القرى، 1406هـ.
11. حسنى عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 2001.
12. خالد علي سالم العدوان، المعاني الدينية في شعر شعراء ما قبل الإسلام، رسالة ماجستير في اللغة والأدب العربي، جامعة مؤتة، 2007.
13. ديوان الخنساء، دراسة وتحقيق إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة، ط1، 1985.
14. ديوان الشنفرى، تحقيق إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، ط2، 1996.
15. ديوان امرئ القيس، شرح هيثم جمعة هلال، دار مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 2012.

16. ديوان أمية بن أبي الصلت، شرح وتعليق سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة، دط، دت.
17. ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح محمد يوسف نجم، دار بيروت، دط، 1980.
18. ديوان حسان بن ثابت، تح الشريبي شريدة، دار اليقين، مصر المنصورة، ط1، 2011.
19. ديوان طرفة بن العبد، تح عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 2003.
20. ديوان عامر بن الطفيل، رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأتباري، دار صادر بيروت، ط1، 1979.
21. ديوان عبيد بن الأبرص، شرح أحمد أشرف عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994.
22. ديوان عدي بن زيد العبادي، تح محمد جبار العبيد، دار الجمهورية، بغداد، دط، 1965.
23. ديوان عروة بن الورد والسّمؤال، دار صادر، بيروت، دط، دت.
24. ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت، دط، دت.
25. ديوان زهير بن أبي سلمى، تح حجر عاصي، دار العزة والكرامة، وهران، ط1، 2015.
26. ديوان عنتر بن شداد، شرح وتقديم محمد أشرف عبد العزيز، دار مكتبة المعارف، بيروت، ط2، 2016.
27. سناء أحمد سليم عبد الله، الموروث الديني في شعر أمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح، فلسطين، 2004.
28. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي -، دار المعارف القاهرة، ط30، 2011.
29. علي رباح، البحث عن الذات في الشعر الجاهلي، رسالة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، سوريا، 2013.

30. عماد الصبّاغ، الأحناف، دار الحصاد، دمشق، ط1، 1998.
31. غسان عزيز حسين، ورقة بن نوفل مبشر الرسول عصره - حياته - شعره، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002.
32. فوّاز الشعّار، الأدب العربي، دار الجيل - بيروت، ط1، 1999.
33. صفي الرحمان المباركفوري، الرّحيق المختوم، دار الوفاء، المنصورة، ط17، 2005.
34. كامل كيلاني، الوعظ القصصي، مؤسسة هنداوي، القاهرة، دط، دت.
35. محمد سهيل طقوش، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النفائس، بيروت، ط1، 2009.
36. محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992.
37. محمد عثمان علي، في أدب ما قبل الإسلام، دار الأوزاعي، بيروت، ط1، 1982.
38. محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، 1977، ج13.
39. منذر معاليقي، صفحات مطوية من تاريخ عرب الجاهلية، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1995.
40. ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار الجيل، بيروت، ط7، 1988.
41. يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، ط3، دت.
42. يوسف سليمان الشنتمري، أشعار الشعراء الستة الجاهليين، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1983، ج2.
43. وليم بن الورد البروسي، مجموع أشعار العرب، ديوان رؤية بن العجاج، دار ابن قتيبة، الكويت، دط، دت .

فليس المصطفى

فهرس الموضوعات

ر.ص	محتوى المذكرة
/	بسملة
/	إهداء
أ-ج	مقدمة
7-1	مدخل: مصطلحات البحث وواقع الحياة العقلية للعرب قبل الإسلام
2	أولاً: مصطلحات البحث
2	1- الإرهاصات
2	2- المتألهون
4	ثانياً: واقع الحياة العقلية للعرب قبل الإسلام
44-8	الفصل الأول: الشعراء المتألهون وواقع العرب قبل الإسلام
9	أولاً: أبرز معالم الحياة الاجتماعية للعرب قبل الإسلام وظاهرة التحنف
9	تمهيد:
9	1- القبيلة
14	2- الثأر
16	3- الطبقة
17	الطبقة الوسطى
18	1- الخلاء
18	2- الصعاليك
18	3- العتقاء
18	الطبقة الدنيا
19	4- الصعلكة
19	أ- الخلاء
19	ب- الأعرية
19	ج- الفقراء
23	5- ظاهرة الحنفاء
23	ثانياً: الواقع الديني للعرب قبل الإسلام وتجليات الفكر التوحيدي
23	1- الوثنية
27	2- المجوسية
27	3- الفكر التوحيدي في بلاد العرب
27	1.3 اليهودية والنصرانية
31	2.3 الحنيفية

34	ثالثا: الشعراء المتألهون
36	رابعا: موضوعات ميّزت شعر المتألهين
36	1-الإيمان بالله
37	2- الإيمان بالبعث ويوم الحساب
37	3- التأمل في مخلوقات الله
39	4- الإيمان بالملائكة
40	5- موضوع القضاء والقدر
42	6- قصص الأنبياء
42	7- الحكمة والموقف الأخلاقي المعرفي
78-45	الفصل الثاني: الإرهاصات في شعر المتألهين
46	أولا: تقاؤل المتألهين بقدوم النبي
48	ثانيا: دعوة المتألهين للإيمان بالله وتوحيده
52	ثالثا: المتألهون ويوم الحساب
55	رابعا: المتألهون وظاهرة التأمل في الكون
60	خامسا: المتألهون وأخبار الأولين
66	سادسا: المتألهون ونظرتهم للقضاء والقدر
71	سابعا: قيم سعى إليها المتألهون
71	1- الدّعوة إلى السلم والأمن والصلح
73	2- الدّعوة لصلة الرّحم والإحسان لذي القربى
74	3- دعوة المتألهين للتحلي بالوفاء والصدق
75	4- دعوة المتألهين إلى حسن الجيرة والتعفّف
76	5- دعوة المتألهين إلى التّعفّف عن كثرة التسأل وسفاهة القول
77	6- نهي المتألهين عن شرب الخمر وأكل الميتة
80	الخاتمة
81	ببليوغرافيا البحث
85	فهرس الموضوعات
/	الملخص

المُلخَص:

تميّز الواقع العربي قبل الإسلام بجملة من المعالم، والتي كان أبرزها مخالفا لما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - من بعد، فالمجتمع العربي الجاهلي عاش قبل البعثة المحمدية فوضى على جميع الأصعدة؛ بما فيها الجانب الديني والاجتماعي والسياسي أو حتى الاقتصادي. وفي ظلّ كلّ هذه التراكمات تبدّت جملة من الأفكار، حمل رايثها ثلّة من الشعراء، عرفوا بالمتألّهين، كانوا يسرون عكس التّيار الجاهليّ في العديد من الرّوى، حيث نادوا من خلالها بالقيم النبيلة والمبادئ السّامية والمعاني الجليلة، بالإضافة إلى معارف اتّسم معظمها بطابع النّديّة لما عهد في الفكر الجاهليّ المظلم، متكئين في هذا على الحنيفيّة الإبراهيمية السّمحة والتي كانت قد تغلّغت بجذورها في شبه الجزيرة العربية، وبالتالي عدّت هذه المعارف والقيم التي ناشدها هؤلاء إرهاباً واستشراقاً لمُخلّصٍ قادم، يطهّر الأرض من الشّرك ورذائل الأخلاق، ويؤمّم المكارم، ويبين الحدود؛ ذاك هو الإسلام.

Summary

The factual life of the Arabs before Islam was characterized by a number of features, which most of them were in opposition to what was approved and stated by the prophet Muhammad, peace be upon him, later. Before the prophet's expedition, the pre-Islamic Arab community was living in a disorder and confusion at all levels, including religious, social, political and even economic.

In the light of all these accumulations, a number of ideas emerged via a group of poets, known for their godliness. They were against the existent visions of the pre-Islamic era. They called for good morals, noble values and dignified meanings. Also, they called for rival knowledge to what was habitual in the dark pre-Islamic thinking, relying on the tolerant Abrahamic Hanifism that penetrated with its roots inside the Arabian Peninsula. Therefore, these knowledge and morals, which were held by those enlighteners, were considered as a foresee and predict for a coming savior, who would cleanse Earth from Polytheism and bad characters, would complete the good morals, and would show the limits; That is islam

الحمد لله الذي جعلنا
مؤمنين بالقرآن العظيم
والذي جعلنا من
القرآن العظيم